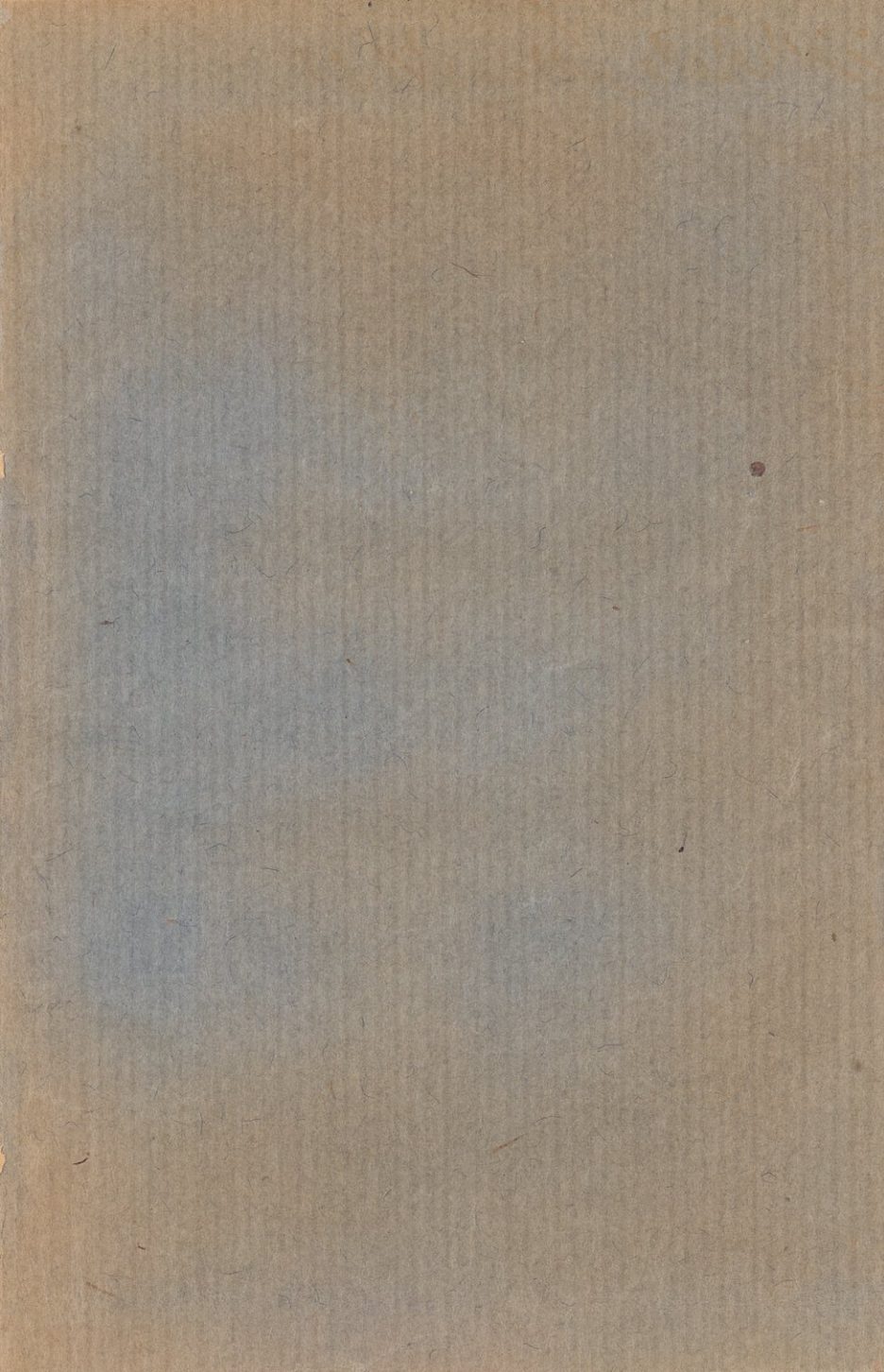






الى الأديب الكبير والحق الغزيز
الاستاذ الكبير أديب
مع المودة والوقرة والاعجاب

فلج
قد رزق

١٩٤٥
١٨

حرب الشعوب

دارُ الاحد - بیروت

قدري قلعجي

892.74

Q614hA

عرب الشعوب^٧

cat. Mar. 15:54

منشورات مجلة الطريق

الطبعة الاولى

نيسان (ابريل) ١٩٤٥

لقد كان الأدب ، منذ حلت الكلمة المكتوبة
محل الكلمة المقولة ، رسالة نبي وشرعة
حكيم ، ورغبة ملتهبة في تحطيم عروش
الاستبداد . فكيف يستكين الأديب اليوم
للامتحان ، ويستنم للطغيان ، ويكتم شجوه
قلبه أمام جراح المجتمع الانساني ؟ كيف
يرى جراح الحب والهجران ولا يرى جراح
الظلم والحرمان ؟ ولم لا يلمس هذا الجراح
بريشته « السحرية » فتبرأ ، وهو وحده
الذي يملك فضح الأباطيل ويدرك ان بين
ما تعانيه البشرية وما تطمح اليه ، خطوات
لاتعياها قدرتها ، ولا تعجز قادتها ، متى
عُرفت حقيقة الداء .

ان الأديب الحق لا يستطيع ان يكون حالمًا
من أولئك الحالمين ، الذين يعيشون في عزلة

فكرية مخجلة، ينظرون من «عليائها» بازدراء
الى الامة التي وضعت فيهم ثقتها وجعلتهم
منها في مكان القيادة ، ويتهربون ، في فترة
النضال الاكبر التي نعيش فيها، من واجب
الدفاع عن الثقافة المهددة والحرية المشخنة
بالجراح . الأديب الحق رائد من رواد
الفكر ، وقائد من قواد النهضة ، ورسول
من رسل الانسانية ، وليس مخلوقاً غريباً ،
متقلب الاهواء ، مريض القلب ، مغلف
الوجدان ، يعيش نجي الشكوك والاوهام ،
مصماً اذنيه عن نداء المظلوم مغلقاً عينيه
عن مدية الظالم .

ان الأديب الحق لا يعيش على هامش التاريخ
بل يصنع التاريخ : انه يفهم قوانين حركته
فيفيد منها ، ويعرف اتجاه التطور فيسير في
طليعته ، وبذلك يكون أدبه أدباً قائداً
هادياً ، وهذا ما نريده للادب العربي .

انطوائت الحجاج

حيث يسير النازي يسير الموت ، في يده منجل حاصد ،
وعلى شفثيه ابتسامة نهم ترقص استبشاراً بالموسم الحصب . فكأنه
ريح السموم تجتاح المدن العامرة والجنائن العاطرة فتحيلها الى
مسارب صلال ومدارج ذئاب .

دخل باريس وانغام الحرية في سماءها شرارات من الشمس
وقيدها ، فاغتصب البسمات من الشفاه ونفثها نواحاً وجراحاً
وتنهديات .

وفي مدينة النور التي أطبق عليها الهول كحجر القبر ، كان
يعيش عربي من لبنان ، عربي مرتفع الجبين في كبرياء الصبح
الطالع . فضاقت بالظلم ذراعاً وضاقت الظلم به .. وفي احدى عشيات
الخريف بطش الطاغية بالغريب الاعزل ، والشمس تنحدر الى
مستقرها فتصبغ العالم بما يشبه الدم ، والطبيعة خاشعة كأنها
قد سكنت كلها لسكون ذلك القلب الكبير .

دم اريق كما يراق قدح من ماء ! ثم هتف الجنود جملة
واحدة لطالما طويت بها جرائم : هائل هتار !
جملة فظة كجمرة تسمل بها عينا طفل بريء ، وقحة كبغي
في الستين .

جملة روعت الطيور الآمنة ، كطلقة نارية ، فأخذت ترود
حائرة حول الشهيد .

والشهيد مسجى في العراء ، تهب على جبينه نسائم مضمخة
بطيب ماضيه ، وأصابع الليل تنسج له كفناً أسود .

وفي الفجر العبوس ، أطلت على الارض الخراب غربان تنعب
جوعاً ، فلما بصرت بالشهيد جعلت تنوح كالحمام .

وأقبلت ضبع تسعى ، فطافت حول الدم الزكي المطلول ،
ثم ولت بطيئة الخطو ، منكسة الرأس ، وفي عيناها دمعة حنان .

والدم الزكي المطلول يسيل ويجري حتى يقتحم على الطاغية
عزله ، فيهتف حانقاً : دم قذر .. دم سامي بغيض !

ولكن الدم يتدفق من كل جانب . أنهار من الدماء تفيض
من الشرق والغرب ، وتفيض من الشمال والجنوب . دماء غامرة
تحدق بالطاغية من كل صوب ، فيصرخ مذعوراً :

« أقضي عليّ ان اموت ، كما عشت ، في بحر من الدم ؟ »
فتنعب بومة هائمة حطت على جثة آخر النازيين ، ويدوي
صدى نعيها في الآفاق ، كضحكة ساخرة جذلى .

ويشهد الكون دنيا حرة جديدة تنشق من بين الدماء والانقاض .

غابرييل بييرى

كان من واجب الوفاء لغابرييل بييرى ان يستوقفنا نعيه هنيئة من الزمان نودع فيها رجلاً احب العرب مخلصاً ، ودافع عنهم بلسانه وقلبه ، يوم تنكر لهم الناس ، وانقطعت بهم السبل ، وفات مطلبهم او كاد .

كان من واجب الوفاء على العرب ان يحييوا في غابرييل بييرى الرجولة الحققة ، والانسانية الصادقة ، والوطنية المثلى التي تعلم صاحبها ان حق امته في الحياة لا يصح ان يقضي على حق غيرها من الامم ، وان الشعب الحر لا يستعبد شعباً اخر . ولعل عرفان الجميل يملى على من عرفه من رجال السياسة في سورية ولبنان ، فصلا أو فصولاً عن هذا الصديق الراحل الذي امتاز بالرجولة والوطنية والانسانية جميعاً ، فكان من المصلحين الذين نهجوا في الاصلاح نهجاً سوياً وشيدوا مبادئهم على امتن اساس . فأن أيسر ما يجب لغابرييل بييرى عند هؤلاء ان يعترفوا له

بالجمل .. ان يعترفوا بنضاله الدائب من اجل اماننا الوطنية
في مرحلة خطيرة من تاريخنا الحديث .

ولد بييري في طولون سنة ١٩٠٢ وشغف في حادثة سنة
بالمبادئ الانسانية ، فانتظم في صفوف العاملين من اجل السلام
والحق والحرية ، وجاهد في سبيلها جهاد الابطال الميامين ، لا
يثنيه عن هدفه هول من الاهوال . ولقد سجن مرة ومرة ومرة ،
فكأنه خلق ثلاث مرات خلقاً جديداً ليدافع عن مثله العليا
بايمان اقوى ، وعزيمة امضى ، وفكرة باذخة تأبى ان تذلل .

وكانت فرنسا تتمخض بعد الحرب الماضية بنهضة شعبية قوية
بدت تباشيرها في انتخاب بييري للنيابة سنة ١٩٣٢ مع رهط
من اخواته ، وفي تجديد انتخابه سنة ١٩٣٧ وتعيينه نائباً للرئاسة
في لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الفرنسي . وفي هذه الحقبة
من حياة بييري عرفناه نحن السوريين واللبنانيين ، بل عرفه
العرب في جميع اقطارهم : فرنسياً عريقاً ، حر الضمير ، يدافع
عن حقوق السوريين واللبنانيين والفلسطينيين والمراكشين
والتونسيين وجميع الشعوب الضعيفة كما يدافع عن حقوق الجماهير
التي يمثلها . فكأنه ضرب لنا بسيرته مثلاً ، واقام برهاناً لا
يدحض ، على ان الديمقراطية تظل ، مهما اخطأت ، افضل
وانبل من الدكتاتورية الفاشستية الطاغية ، لانها تنجب امثال
بييري ، ولانها تسمح لمثل هذا الرجل الحر بان ينتقد مواضع
الخطأ في سياسة حكومته ، ثم يذكرها بمبادئ الثورة الفرنسية
التي اعلنت حريات الناس وحقوقهم وبان هذا التراث يفرض

عليها واجبات معينة تجاه الشعوب الموضوعة تحت وصايتها ...
يفرض عليها ان تبث حب الحرية في الشعوب المستعبدة لان
تقاوم هذه النزعة الاصلية فيها .

استغرقت قضايا شعوب المستعمرات والبلاد المشمولة بالانتداب
الفرنسي جانباً كبيراً من نشاط بيروي . وكانت المقالات التي
يكتبها في هذا الموضوع والخطب التي يخطبها ، تدل على اطلاع
واسع واحاطة دقيقة بشؤون المستعمرات ولا سيما بالقضية العربية ،
فكان لصوته وصوت اخوانه في المجلس النيابي الفرنسي ، وللمقالات
التي كتبوها ، اثر كبير في كل بادرة من بوادر الاصلاح صدرت
عن السياسة الفرنسية فيما يتعلق بالبلدان التابعة لها .

وفي سنة ١٩٣٦ هبت العناصر الطيبة في الجبهة الشعبية تطالب
الحكومة الفرنسية بتعديل سياستها في سورية ولبنان ، وتبديل
الانتداب بمعاهدة تحالف تكسب الفرنسيين صداقة العرب . وكان
غابرييل بيروي من اظهر هذه العناصر ومن اوفرها حماسة في
الدفاع عن قضيتنا : بذل الجهود الكبيرة لحمل الحكومة الفرنسية
على تحقيق هذا المطلب العادل من مطالب الوطنيين السوريين
واللبنانيين ، وسهل بنفوذه وخبرته مهمة الوفد السوري في فرنسا .
وما كادت تعقد المعاهدة الفرنسية السورية ، مقدمة لعقد معاهدة
مماثلة مع لبنان ، حتى جعل السعي لتصديقها هدفاً رئيسياً من اهدافه .
فلم يكن لينقضي يوم من تلك الفترة العاصفة الا وله فيه مقال او
خطاب او دعوة لتأييدها . وكان بيروي مخلصاً في هذا لوطنه ولقضية
السوريين واللبنانيين معاً ، لانه كان يعرف انه اذا كانت مصالح

نفر من المستعمرين الفرنسيين تناقض امانينا الوطنية ، فان مصلحة الوطن الفرنسي ومصلحة الشعب الفرنسي الحقيقية لا يمكن ان تتعارض مع حقوق السوريين واللبنانيين ، بل هي تقوم على تأييدها والنضال في سبيلها ضد مستعمر يستثمر شعبه ويضطهد الشعوب التي يسيطر عليها .

ولكن دسائس الفاشيست الفرنسيين ، التي قضت على مشروع المعاهدة السورية الفرنسية ، استطاعت ان تتغلب - الى حين - على ارادة احرار الفرنسيين ، وان تعطي عملاء الفاشيستية في بلادنا سلاحاً جديداً للنضال ضد الديموقراطية ، فنشط موظفو القنصليات الايطالية وقادة النادي العربي وفلول الحزب السوري القومي ، وجميع العناصر التي شاخت في اثاره الفتن ، لتوجيه سياستنا وجهة خاطئة تخدم مطامع المانية وايطالية الاستعمارية في بلادنا . الا ان هذه المحاولات لم تؤت ثمراتها المرجوة ، لان الكثرة الغامرة من العرب كانت قد بلغت من الوعي القومي والنضج السياسي حداً علمها كيف تصمد لبغات الامور ، وتتجنب الوقوع في مثل هذه الشراك الخادعة ينصبها الاستعمار الفاشستي الذي يحقي سموم الافاعي وراء دموع التماسيح .

لقد كنا نريد ان نرى وطننا حراً مستقلاً صديقاً للديموقراطية الفرنسية ، متضامناً معها في اخطر مرحلة من مراحل التاريخ ، فاذا كانت السياسة الرجعية الفاشستية قد عدلت بجورج بونه من نهج الى نهج ، فزينت له ان يخلف معنا وعده ، فان هذا لا يمكن ان يطوِّح بنا الى الجانب الآخر فنجعل بلادنا

الغالية موطناً لنعال الفاشيست ، لا يمكن ان يثينا عن اهدافنا
الرشيده فننكر تاريخنا ونضالنا ومبادئنا ونذعن للعبودية الهتلرية ،
لا يمكن ان يعدل بنا عن الاستشراف لامانينا القومية ويخرجنا
من شفق واعد يموج بالرجاء الى غسق قائم تعج فيه الثعابين
وتضري الذئاب ، لا يمكن ان يززع ثقتنا بالشعب الفرنسي
وبالاحزاب والهيئات والشخصيات الموالية لنا والتي ظلت تدافع
عن حقوقنا الوطنية دفاعاً مجيداً ، وتطالب بتوطيد اسس التحالف
بين فرنسة والعرب ، على اساس الاخاء والمساواة والحرية التي
حملتها الثورة الفرنسية الى العالم .

والواقع ان غابريل بيوري وزملاءه الاحرار في فرنسة ، قد
واصلوا سعيهم وضاعفوا جهدهم وحملوا حملة شعواء على تلك
السياسة الرجعية المستوحاة من تعاليم برلين وروما والتي تسيء
الى مصالح فرنسة وسورية على السواء ، ولا تخدم سوى مآرب
الفاشيست الذين كانوا يريدون عبثاً اضعاف الصداقة بين الشعبين
السوري واللبناني والشعب الفرنسي ، واذا كانوا قد نجحوا مؤقتاً
في محاربة سياسة الاستقرار على شواطئ المتوسط فان هذه
السياسة التي يشعر بضرورتها جميع محبي وطنهم في فرنسة وسورية
ولبنان ، ما لبثت ان انتصرت بعد انقشاع ظل فيشي عن هذه
البلاد وجنوح حكومة الجنرال ديغول الى اصلاح اخطاء الماضي
باستبدال الانتداب بمعاهدة تعقد مع السوريين واللبنانيين على
اساس الاعتراف بحقوقهم المقدسة في الحرية والاستقلال .
وقد وجه بيوري الى العرب يوم اخفقت الجهود التي بذلها

لتصديق المعاهدتين السورية واللبنانية ، رسالة مؤثرة دلت على
عظيم اخلاصه لقضيتنا ، ومما قال فيها :

« ... وهل من الشطط ان نطلب من اصدقائنا السوريين ،
وان نرجوهم ، بان يساعدونا مرة اخرى في اتمام واجبنا ؟ اني
اعلم بان مهمتنا ومهمتكم اصبحت غاية في الصعوبة . لقد عمل
الفاشستيون كل شيء لمحاربة الصداقة الفرنسية السورية ، لكن
هذا ليس سبباً لان نفقد شجاعتنا او لان نترك انتباهنا الشديد
تجاه عدونا الاساسي . ومهما يكن مصير معاهدة سنة ١٩٣٦
فعدونا الاساسي هو عدوكم يا اخواننا في سورية ولبنان ، هو
الفاشستية الموسولينية والفاشستية النازية ، عدوكم الاساسي هو
التعاليم والسياسة التي تمهد السبيل لتسلط عرق من العروق وتبرر
كل ارهاب .

« سيستثمر عملاء هتلر وموسوليني هذا الموقف كما يحلو لهم ،
فلا تتركوهم يفعلون ! لا تقعوا في حبال كذبهم ، لا تنسوا
ان هؤلاء الذين يتوجهون اليكم الآن بكلمات معسولة ووعود
خلافة هم الذين افنوا سكان طرابلس الغرب واحرقوا مدن
البنانيا المنكوبة .

« انا لا اكتب هذا مطلقاً لكي اعذر معرقلي المعاهدة
الفرنسية السورية ، فهؤلاء مجرمون وسفّاح خطاهم ، ولكن
احذروا الفخاخ المنصوبة لكم ! لا تتركوا انفسكم فريسة للاستسلام
والشك وفقدان الشجاعة .

« ان معركة كبرى قد بدأت في العالم بين الفاشستية

والديموقراطية . لقد تقاعست الديموقراطيات عن واجبها تجاه العالم العربي ، هذا صحيح جداً ، لكن الفاشستية قد قامت نحوه دوماً بسياسة ضغط وارهاب ، فمن هذا الضغط وهذا الارهاب يجب عليكم ان تحفظوا بلادكم . كونوا واثقين بانكم لستم وحيدين في هذا النضال وانه لا يزال لكم ، ولكم دوماً ، حليف هو جماهير الفرنسيين الذين يحتفظون في قلوبهم بالشعلة التي كانت تضطرم في صدور ثوار ١٧٨٩ واضعي حقوق الانسان .

هذا ما كتبه غابرييل ييري الى العرب في ١٤ تموز ١٩٣٩ ، لمناسبة الذكرى المائة والخمسين للثورة الفرنسية ، قبل اعلان الحرب باسابيع ، وهو آخر ما نشر له في الصحف العربية ، فلعلة يكون لنا وصية نعمل بوحيا ونستهدي بهديا في حلك الخطوب ، لان الصديق الذي كتبها قد مات شهيداً في سبيل المبادئ التي دعانا اليها ، وببدا الظلم الذي حذرنا منه .

اننا نذكر غابرييل ييري وفي صدورنا لوعة مرة وغصة لا تزول ، وسنذكره دائماً في آلامنا وافراحنا ونذكر ان اليد المجرمة التي قتلتته هي التي قتلت انطوان الحاج رفيقه في الجهاد ، وقتلت في الشرق والغرب ملايين من الابطال ضحوا بانفسهم من اجل حرية اوطانهم وحرية العالم .

٢٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٢

في ذكرى الثورة الفرنسية

كلما سمعت « الصوت الفرنسي » ينشد المارشيليز في هذه الايام،
من راديو لندن او كويشيف او بيروت ، خيل الي انه ليس
صوت رجل او رهط من الرجال ، بل صرخة امة لا تريد ان
تموت ، بل مشعل ثورة لن يلبث حتى يصدع سواد الظلام
والظلم عن فرنسا ام الثورات ومهد الحرية والنور .

واني لاصيخ الى هذا الصوت بكل جوارحي ، فلا افهم
معانيه فقط ، بل احس نبواته وما يتموج فيها من ألم ابي
وطموح جريح . فاذا ردد من النشيد الوطني هذا المقطع :

ايتها الحرية ، ايتها الحرية العزيزة !

حاربي مع المدافعين عنك ...

خيل الي انه يضطرب ويتهدج ، ويغدو اشد تهيباً واكثر
عمقاً ، كأن النشيد قد حال الى صلاة !

هذه العاطفة المبتهلة ، المتهبية ، العميقة ، هي التي خالجتني حين

دعيت للحديث في ذكرى الثورة الفرنسية عن مبادئها الخالدة (١) ،
لان الحديث عن هذه المبادئ هو حديث عن امانى الانسانية في
جميع البلاد والعصور ، ولم تكن الانسانية في زمن من الازمان
مهتدة بالقضاء على امانها شأنها اليوم .

لقد نادى الثورة الفرنسية بالمساواة ، فاصبحت هذه الكلمة
لاول مرة شعار نضال سياسي ، وكانت تعني الغاء الفروق بين
النبل والاكليروس والفرسان والعامه ، ومساواتهم في الحقوق .
الا ان المساواة لم تبلغ يومذاك ذروتها ، فظل النضال من
اجلها مستمراً ، وان لم تأخذ مدلولاً عملياً في اذهان كثير من
الناس ، لانهم لا يزالون يطلقونها اطلاقاً خيالياً لا يرتبط بظروف
مادية من الزمان والمكان .

ان اعداء المساواة يجعلون من هذه الكلمة البسيطة كلمة
مركبة لكي يستطيعوا محاربتها ، وكثيراً ما يرددون أقوال اشعي
الذي تنبأ بعهد يمشي فيه الاعرج ، والاعمى يستطيع ان يرى ،
وضعيف العقل يزداد باضواء المعرفة — يرددونها ساخرين كلما
رأوا دعاة التقدم يعملون على تحرير الانسان ، ليشبوا لهم التفاوت
الاجتماعي اذلي كالتفاوت الطبيعي . سوى ان دعاة المساواة لا يدعون
الى المستحيل ، ولا يزعمون ان من الممكن ان يتساوى الناس
في الاجسام وفي العقول ، وهم اذ ينشدون المساواة لا ينشدون من
وراءها الا محو الظلم الاجتماعي الذي يمنع ذوي الاقدام الصحيحة

(١) القى هذا الحديث من محطة راديو الشرق

عن السير ، ويقضي على المبصر ان يعيش في الظلام ، ويحول
دون ذوي المواهب وما ينزعون اليه من المعرفة .

ويحسب بعض الناس ان دعاة المساواة يريدون ان يتقاسم
الناس بالتساوي ، انتاج الارض والمصنع ، دون النظر الى
اختلاف كفاءتهم ومقدرتهم ومدى انتاجهم . وهم يوهمون التاجر
صاحب الحانوت ، والفلاح صاحب الارض ، والمتقف الذي جمع
مقداراً من المال ، والموظف الذي بنى لاسرته بيتاً ، بان ملكه
سينتزع منه ويحرم ثمرة جهوده واتعابه . وليست هذه النظرية
الا من مبتكرات خيالهم ، ولم تقل بها المذاهب الاجتماعية التي
لا ترى الان في المساواة سوى معنى واحد هو الغاء التفاوت
الطبقي في المجتمع ، والغاء التفاوت الجنسي في العالم ، وتوزيع
الانتاج على الناس حسب العمل الذي يقوم به كل واحد منهم ،
حسب نوع هذا العمل ومقداره ودرجته . وما دام هناك عمال
متخصصون وعمال غير متخصصين ، ما دام هناك افراد نشيطون
واخرون مبتلون بالعجز او بالكسل ، ما دام هناك نوابغ
واغبياء ، فلا بد من ان يكون هناك ايضاً فرق بين الاجور
التي يتقاضاها كل واحد من هؤلاء .

المساواة في النشأة الاولى ، في حق العمل والراحة وفي
حق العلم والثقافة ، والمساواة بين الرجل والمرأة ، والمساواة
بين القوميات المختلفة — هذه هي الدعائم الصحيحة لنظام اجتماعي
واممي صحيح ، يعطي الجميع امكانيات متكافئة تسمح لهم بأن
يتنافسوا تنافساً حقيقياً ، فلا يعيش احد عالة على احد ، ولا

يخدم المنتج العاقل عن العمل ، ولا يخنق الموهوب مواهبه الفنية
أو العلمية في سبيل الحصول على لقمة يكفي بها جوعه ، ولا
ينال الانسان الا بقدر ما يعمل : ومن يعمل مثقال ذرة خيراً
يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

اما الذين يقولون بجعل الناس في مستوى واحد ، وعلى
شكل واحد ، ولا يرضون بغير هذا النوع من المساواة بديلاً ،
فهم اعداء المساواة ، اذ لا يمكن ان نطمح الان الى اكثر
من تحقيق هذه القاعدة : من كل انسان حسب كفاءته ، ولكل
انسان حسب عمله .



ونادت الثورة بالاخاء ، ومن ذا الذي نادى الى الاصلاح في قديم
الزمان وحديثه ، ولم يجعل من الاخاء الفكرة القائدة التي يصدر
عنها واليها يسير ؟

ولقد كان شرقنا ، وكانت بلادنا ، مهد هذه العاطفة السمحاء
يوم ظهر فيها رجل متواضع القلب ، ولد في مذود ، وعاش
عمره يمسح دموع البشر بكفه الرحيمة ، وينادي : احبوا بعضكم
بعضاً .. اصنعوا بالغير ما تريدون ان يصنع بكم . ويوم تمخضت
الصحراء بالرسول العربي الذي حارب عصية الجاهلية وقال
شرعه الحكيم : يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم .
وكان من حق هذه الكلمات البسيطة ان تغلب العالم ، وتفتح

عصراً جديداً ، ولكنها ما لبثت ان ضاعت في صرخات الحقد
وانين العبيد ، وزئير الشعوب المضطهدة ، واصطدام الحديد بالحديد .
وفي هذه الظلمة الداجية ارتفع مشعل الثورة التي هزت عروش
الاقطاع ، وحطمت امتيازات السادة ، واعلنت حقوق الانسان ،
فاصبحت شرعة العالم الجديد .

وهبت انفاس الحقد مرة ومرات على هذه الشعلة المباركة
تريد ان تطفئها فسال الدم الفرنسي للدفاع عنها في سني ١٨٣٠
و ١٨٤٨ و ١٨٧١ .

وتطور الزمن ، فاذا بملايين الناس يشقون في المناجم والمعامل
وساحات الحرب ، فارتفع صوت جديد منادياً شعوب العالم الى
التآخي والاتحاد في مكافحة العاملين على شقاء الشعوب ، وكان
احفاد الثورة الفرنسية في طليعة من لبوا النداء ، وسعوا له ،
وضحوا من اجله .

ونادت الثورة بالحرية ، والحرية هي الفكر الحي الذي لا
يخضع للقواعد المرسومة والحظوظ المقسومة .

هي رفيقة المضطهدين ، افراداً وشعوباً ، في مشرق
الارض ومغربها ، تراققهم وتبعث فيهم روحاً جديدة ، وتؤكد
لهم ان الفجر قريب .

فيا ايها الحرية ، يا روح المارسييليز التي توقظ الشعب الفرنسي
مرة اخرى ..

ان احفاد الثورة الفرنسية الذين استبدلوا من شعاراتها شعارات
جديدة ألصق بروح العصر ، وجدوا اسمك المشتعل قبلة لجميع
العصور فقالوا : الحرية والحزب والسلام . لقد رأوا ان الحزب والسلام
لا يكفيان ، لان وراء الرخاء المادي ، ووراء الامن الشامل ،
فرحاً اكبر هو فرح الفكر الحر الذي يتمخض دائماً بثورات
جديدة واصلاحات جديدة هي الضمانات الوحيدة لتقدم الانسان .
وان الفرنسيين الذين ابوا الا ان يحاربوا عدوهم وعدو
الانسانية ، بالعدد القليل والعتاد اليسير ، ارادوا ان يختاروا رمزاً
يعبر عن تمردهم على الطغاة ، وعن شجاعتهم التي لم تغلب ، وعن
الثورة التي يزعمون القيام بها ، فلم يجدوا سوى اسمك الاحمر .
ايتها الحرية التي حطمت سجن الباستيل : ان اوربا اضحت
باسرها سجناً رهيباً .. فحاربي ، اليوم ايضاً ، مع المدافعين عنك !

١٤ تموز سنة ١٩٤٢



تحية الى الشعوب السوفياتية

يحتفل العالم اليوم ، من اقصاه الى اقصاه ، بمرور خمس وعشرين سنة على الانقلاب الروسي الذي سجل بدء حقبة عظيمة في تاريخ الانسانية . وهو اذ يحتفل بهذه الذكرى العابقة بالاجاد ، انما يحتفل بالعمل الخالق والفكر المبدع والتطور الواثق ، في زمن تحاول فيه النازية ان تلوي عنق الانسانية الى عصور المهجية وشرايع الغاب — فكأن في ذلك حكما على هذه الردة بانها لا تستطيع ، مهما اوتيت من قوة البطش ، ان تشغل الناس عن الغايات الرفيعة والقيم السامية ، ومناداة بان هذه الغايات والقيم هي الغالبة في هذا الصراع لانها مؤيدة بقوانين الحياة السائرة والمتطورة .

ونحن العرب نشارك العالم الاحتفاء بهذه الذكرى مشاركة صادقة ، ونقدر الجهود الجبارة التي بذلها السوفييات لبناء وطنهم الكبير على اسس قومية وانسانية صحيحة ، ولشق الطريق المثلى

الموصلة الى ارفع درجات الرقي . فلاحتراف بهذه الجهود هو
احتراف بآمالنا في الحياة ، وتذكير بما نسعى لبلوغه من المطالب
القومية والحقوق الاجتماعية والحريات الديمقراطية ، ومساهمة
في تكريم المناضلين من اجل هذه المطالب والحقوق والحريات .
واني لسعيد وفخور ، بان ادعى للتعبير عن شعور العرب ،
في هذه البقعة من الارض ، لهذه المناسبة العظيمة (١) ، وان
كنت استصغر شأن الكلام في مثل هذا الموقف ، مهما جل
الكلام وتسامى . ففي هذه الساعات ، وقد اشتد الوغى واستحر
الموت ، وغمرت العالم احوال من الشرينكرها الشر - في هذه
الساعات العصبية الحاسمة في حياة الانسانية لم يبق الا مكان
واحد يليق بالشرفاء وهو الجبهة التي تحارب القيلة الملعونة :

وجه الردى مستحسن في معرك

وجه الحياة بحومته جميل

لذلك اراني حائراً اذ اتوجه بالحديث اليكم ، يا اخواني ابناء
الشعوب السوفياتية . ان ما يحيش في قلبي لا يستطيع ان اعبر
عنه ، وليس ما اكتبه واقوله الا كصورة الحريق على لوحة
الرسام فيها الوان اللهب وظلاله وليس فيها حرارته واحتداه .
ان اسم ستالينغراد ليون في اذني رنين الالم والفرح معاً ،
فكيف يكون لقلبي قرار على صياح هذه العاطفة المزدوجة ،

(١) اذيع قسم من هذه « التحية » من محطة راديو الشرق ، في

وكيف لا يكبر على نفسي ان لا املك للمساهمة معكم في
مصارعة زوبعة الموت سوى قلم ضعيف ، مهمل تفرّج له في
جوانب البيان فلن اظن به الوفاء بوصف بطولتكم .

يا ايها المناضلون الذين يدافعون عن تراثهم الوطني وتراث
الانسانية ، الحاملون على راحتكم مستقبل العالم ، الباذلون دمكم
من اجل حريتكم وحرية الشعوب كلها - اني لاحمل اليكم من
الشعوب العربية تحية بسيطة حارة صادقة . تحية معجب ببادئكم
المثلى ، مقدر لجهادكم النبل وشجاعتكم الخالدة . تحية
معترف بجميلكم اذ حملتم وحدكم عبء النضال ضد العدو
المشترك . تحية ليس ثمة وجه من الشبه بينها وبين التحيات التي
ترسل اليكم مجاملة وملاطفة وتفضلا . فحنن اذ نرسل اليكم تحيتنا
لا نحاول ان نزيدكم حماسة وايمانا ، ولا نخفي وراءها ما
يشوبها ، بل نوّدي بعض الواجب الذي يدين لكم به جميع
احرار الدنيا . ونحن ، اذ نصفق لكم ، ونشيد بكم ، ونمجّد اسماءكم ،
لا يكون ذلك اعترافاً منا بالمستوى الرفيع الذي تتبوأونه
بحق ، بل دليلاً على اننا في مستوى رفيع لاننا نفهمكم ونقدركم
ونتهف لكم ، انتم الذين لا تقتصر بطولتكم على غرض واحد
من اغراض الحياة ولا تنتهي من اسباب الدنيا عند حد .

ان خمسة وعشرين عاماً لا تكفي لخلق انسان واحد ، لكنها
كانت كافية في بلادكم لمحو عالم وخلق عالم . وهذا العالم الجديد الذي
ولد في ٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ ، ما زال يسير مذ ذاك ،

من فجر الى فجر ، ومن انتصار الى انتصار ، حتى قرب
الابعاد والاضداد ، وربط بلادكم بالوف المدن من سائر الاقطار
ومنها مدينة بيروت في لبنان ، والههم اقلاماً لا تعد في مشرق
الارض ومغربها ومنها القلم الذي جرى بهذه التحية .

لها حياة حافلة بالاحداث تلك الحياة التي قضيموها في
ربع قرن ، غص اوله بالدم ، وفاض آخره بالدم ، وشهد بين
ذلك بناء ليس له مثل . هي خمسة وعشرون عاماً في حساب
الزمن ، لكنها في حساب المدينة خمسة وعشرون قرناً : « ان
يوماً من ايام الله كالف سنة مما تعدون » .

وها ان بلادكم بعد انعقادها من قيودها ، تفتح امام العالم
ثبت تجاربها لينتفع منها . تجارب ، بل معجزات ، تعانقت فيها
شقي المتناقضات ، فاذا روسيا التي كانت سجيناً للامم تتحول
الى اتحاد للامم ، تعيش فيه ، تحت ظل السلام ، مائة وثمانون
قومية مختلفة اللغات والالوان والعروق والاديان ، كان اختلاف
عناصرها وخصائصها مثاراً للحروب الاستعمارية والنهب الاقتصادي
والاحتقار الجنسي ، فاصبح مصدراً لثروة باذخة في ميداني المادة
والفكر . واذا تلك الشعوب التي كان اسمها مجهولاً من العالم
المتمدن ، وكانت محرومة من اسباب الحضارة كلها ، وحتى من
لغة تكتب بها ، تطفز الحياة الاجتماعية فيها طفرة جبارة تتخطى
في سنوات قروناً من التطور التاريخي ، وتظهر للعالم ان
التطاحن بين القوميات والشعوب واستعباد الامة القوية للامم
الضعيفة ، ليس قانوناً طبيعياً ابدياً ، وانه من الواجب ، ومن

الممكن ، ان يحل التآخي محل التطاحن والتعاون محل الاستعباد ، وان تسقط حواجز الالوان والعناصر والطبقات لكي تلغى الحروب وتزول الاحقاد ويبطل استعباد شعب لشعب وفرد لآخر ، ويتعاون جميع الشعوب والافراد على البناء والخلق كما تتعاون عائلتكم الفريدة في التاريخ .

تجارب ، بل معجزات ، جددت شباب مملكتكم ، وبعثت قواها من الاعماق التي هجعت فيها دهرأ طويلاً ، وعلمت العالم كيف تسير مرافق الحياة في اتجاه واحد هو الصعود ، فاندحار الشعب في عام ١٩٠٥ يلد انتصاره في سنة ١٩١٧ ، والفرق الثورية الصغيرة تتحول الى جيش عظيم ، والمدركة « اورورا » تصبح نواة الاسطول الاحمر ، واشد الاقطار رجعية وتأخراً وخراباً تغدو خلال سنوات معدودات في طليعة الاقطار صناعة ومدينة وعمراناً .

تجارب ، بل معجزات ، اعادت الى الانسان ثقته بنفسه . لم تكف باعطائه حقه في الثقافة والراحة والضمانات الاجتماعية ، ولم تقتصر على اعطائه الحريات التي يطالب بها ، بل بذلت له الوسائل اللازمة للتمتع بهذه الحقوق والحريات . ولم تخضع المجتمع لقانون تسوية عامة ، بل وزنت اقدار الناس على اساس مواهبهم وكفاياتهم ، وفتحت السبل الممكنة لانماء المواهب كلها واظهار الكفايات جميعاً . لقد سخرت وسائل الانتاج لخدمة الانسان فتغيرت

معاني القيم الانسانية : كان المصنع سجيناً للأعمال الشاقة فأصبح ملهاة ومدرسة . وكانت الارض وسيلة لاستعباد الانسان فصارت ملكاً له يروضه باسباب الحضارة . وكانت العائلة بؤرة للنفاق والحيانة واوشاب المادة ، فاصبحت تقوم على اساس الحب المتبادل . وكان الوالد كـلاً على ابويه وعباً عليهما ثقيلاً ، فاضى بهجة للقلب والعين وسعادة نامية ، منطلقة على دروب رحبة معبدة . وكانت الجيوش طوائف منفصلة عن الشعب تزعم انها تحميه وما هي الا اداة استعباده وتسخيره لاستعباد الشعوب الاخرى ، فاصبحت وغايتها الوحيدة الدفاع عن ارض الوطن ، وواجب الجندي فيها قائم على الفهم للمهمة المنوطة به وليس هو خاضعاً لارادة افراد يسيرونه كما يشاؤون ويضحون به من اجل منافعهم الخاصة ، وامست المؤخرة جزءاً من الجيش تؤلف معه كلاً موحداً متراصاً يتساهم واجب القتال بجميع الاساليب والوسائل المتوافرة .

تجارب ، بل معجزات ، جلت عجائب الاضداد ، فرأينا في نورها كيف يصبح الاخير اولاً ، والبغي مربية ، واللص مؤتمناً . كيف تجتمع الاشتراكية والملكية معاً . كيف يجيد الحرب رجال السلم . كيف يكون الحاكم قائداً ورفيقاً في آن واحد . كيف تحمي السلطة حقوق المتدينين ولا يتدخل المتدينون بالسلطة . كيف يتحول اضطهاد رسول بيان الله الى تقدير لعبد الرحمن رسول . كيف تصبح المرأة رفيقة للرجل لا أمة له . كيف تتحقق مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ولا

تتعارضان . كيف ينعقد دخان المصانع الضخمة في البلاد الزراعية . كيف تنبت الورود في القطب من ضمير الجليد . كيف تتحول الصحاري في آسيا الوسطى الى واحات . كيف يوجد العلماء انواعاً جديدة من النبات . كيف تضحك السعادة في بيوت لم يكن يدخلها النور الا وهو باك عليها . وكيف ان قدرة الانسان على توسيع العالم اوسع جداً ، اوسع جداً ، مما كان الناس يحسبون .

هي صور التطور في تمام ظهورها واكتمال نموها ، يحلو بعضها بعضاً فتبدو رائعة بجلالها غير متناهية في مداها ، قد برئت من كل ما يؤدي الضمير ويخرج البصر ، وانقلب فيها المستحيل ممكناً والخيال حقيقة والحلم يقظة ، فكأن العقول كانت تبني ، وكأن الايدي كانت تفكر ، وكأن الاقدام كانت تطير - في شعوبكم العظيمة التي انبثقت من الظلام وانشأت الحياة من عدم : « ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي »

على هذا النحو كانت شعوبكم تمثل الحياة وتبنيها ، لما فاجأتها النازية ، لعام وصدر من عام ، بالسلاح الجائع والجيش المجنون ، فاذا وجوهكم التي لم تتقبض في خمسة وعشرين عاماً الا من الضحك تتقبض من الجد والحزن ، واذا النساء التي كانت ترف هازجة على نهر الدون قد داخلها شجو الانين ، واذا طلقات النار تتجاوب بين اشجار الزيتون ، والجثث تتساقط على السنابل الشقر ، وتراث الفكر يداس بالنعال ، وحراب الجنود تطعن

ابتسامات الاطفال ، والدنيا حمراء كأنها من الدم قد خرجت ،
والشباب السوفيات يسعى اليهم الموت بالف شفق فاغر وهم
اليه يسعون ... وهكذا التقى الموت والحياة وجهاً لوجه .

وفي هذه الحرب الضارية التي لم يشهد التاريخ مثيلاً لها ، اقمتم
الدليل لمن كان لا يزال بحاجة الى دليل ، على ما توافر لكم
من سمو الروح وحياة الوجدان وقوة الوحدة ، وما يتوج كل
اولئك من حب واع عميق لوطن يشدكم الى ثراه نظام سنّه
لكم مشروع عظيم يحتفل العالم اليوم بذكرى انتصاره وهو راقد
في ساحة موسكو قريو البال لانه قبل ان يغمض عينيه فتح
عيون الملايين .

وفي بلادكم ، ولاول مرة في تاريخ هذه الحرب ، اصطدمت
الجيوش المحاربة بمقاومة فعالة ، وما هي الا شهور معدودة
استيقظت فيها من صدمة المفاجأة ، حتى اصبت تلك الجيوش بأول
هزائنها وقضيت على الخرافة التي نسبت اليها المناعة والعصمة ،
ولو كنتم تحاربون المانيا وحدها لربحتم الحرب يومذاك ، لكنكم
كنتم تحاربون اوروبا بمواردها الصناعية والبشرية كلها ..

ثم تتابعت الملاحم ، فقضيت على ملايين الجنود المحوريين ،
واحبطتم امل هتلر بالنصر في هذه الحرب ، لانكم فضلاً عن
تحطيم قواه واستنزاف موارده ، قد اعطيتم بريطانيا واميركا
فرصة مكنتهما من زيادة انتاجهما وتعزيز قواهما .

واليوم تقف جيوش العالم الضريح على ابواب مدينة الفولاذ
التي تحمل اسم رجل الفولاذ ، وهي تنوح وتجدف وتتخبط في
وحول الدماء . انها على جناح هوة كئيبه هي هوة الموت ،
فلا هي تستطيع ان تتقدم فتتردى فيها ، ولا هي تستطيع ان
تعود في الطريق التي زرعها الانصار وراءها بما هو اهل من
الموت . وقد لبثت هذه الجيوش ثلاثة اشهر سوياً ، وهي ترتعد
على حافة هذه الهوة العظيمة التي تشبه الفضاء اتساعاً والليل
ظلاماً .

هناك هوات للخير يتردى الشر فيها ، وستالينغراد هوة عظيمة
تبتلع القوى الفاشيستية المهاجمة . في العام الماضي كان هتلر يحتل
الاقطار الكبيرة في ايام معدودة ، والان ، بعد مائة يوم من
هجوم متواصل اشتركت فيه القوى الاوروبية كلها ، يعلن
عجزه عن احتلال عروس الفولغا . فيا عجباً ، هل روى التاريخ
ان مدينة تقهر قارة ؟ وفي مثل هذه الحرب الصاعقة ؟

مسكين هتلر ، انه لا يفهم بلادكم ، لانه لا يستطيع ان
يفهم كيف لا ينحني شعب من الشعوب امام اكبر قوة
عسكرية في العالم . لقد داخله العجب حيناً فخيّل اليه ان
الزمان قد اصبغ في قبضته فهو يستطيع ان يتصرف باقدار
الناس كما يريد . وها هو اليوم واقف على جناح الهوة التي
حفرتموها له ، وقد احس انه الضعيف المهزول امام القوى

القادر ، فكأنه ليس الرجل الذي كان الى شهور خلت يطحن
الامم طحن الحصيد ويذري غبارها مع الريح . لقد كان يخشى
السلم اذ لا حياة لنظامه مع السلم ، فلما دخل الحرب وجد
ان لا حياة لهذا النظام مع الحرب ايضاً . انه لينظر دهشاً الى
مدنكم المشتعلة ، ويرى يائساً كيف تخوض جيوشه ذلك الموج
الاحمر . ان عبأً ثقيلاً قد استقر فوق صدره هو جماجم ملايين
الالمان الذين قتلهم . وهناك جماجم اخرى تكشر في وجهه
تكشيرة كظيمة ، هي جماجم الالمان الاحياء تبصق في وجهه
قرف الموت من شيطان الموت ... فيا ايها السائر الى القبر ،
لقد غرتك سهولة المدخل .



لشد ما تذكر ستالينغراد بموسكو . ان اول قنبلة جرحت
العاصمة السوفياتية قد جرحت قلب الانسان ، لكن موسكو
قالت : كلا ، ولو تحطمت هذه الكلمة لتحطم قلب الانسان .
ولشد ما فرحت عيناى اذ شاهدت في شريط الدفاع عن
موسكو فلول الالمان الهاربين . ولشد ما يبتهج الآن قلبي
اذ اسمع صرير المسمار الذي تدقه ستالينغراد في تابوت النازية .

يسمي الالمان ستالينغراد : طريق الموت . اجل ، وانها
لطريق الحياة ايضاً . وليس لاول مرة يلتقي الموت والحياة .
وليس لاول مرة ايضاً تثبت الحياة انها اقوى من الموت .
ان انفاس الفولغا لا تزال تنعقد في سماء تلك المدينة ، وان

عيدان الشجر لا تزال تصطفق على عدوتيه ، وان الحقول
المتراصة لا تزال تذكر بمنام العيش ، وكل شيء يدعو الى الحياة
في ذلك القطر ، قطركم ، الذي فهم معنى الحياة .

ولله ما اروع الحياة غداً حين يمر هذا العاصف عن العالم ،
وينجلي موج الليل عن صبح انور ، ويطل الربيع على الارض
الخراب فيغيدها ارضاً للحب والخصب ، وتسير الحياة من
جديد في طريقها الصاعد . فينتصب الشباب انتصاب الجذع ،
ويرجع الغارس والباقي الى غرسه وبنيناه ، ويضحك الامل
للعدارى ويضحكن له ، ويخلع السلام على بلادكم ثوباً من
البهاء والرواء ، ويعود « هادئاً يجري الدون » !...

•
وطننا يصعد نحو القمم... هكذا كان يغني عمالكم. الحرب
عاصفة... هكذا ينشد اليوم جنودكم. ومن اجل هذا
تبدلون دمكم بسخاء : لانكم في صعودكم نحو القمم عدت
عليكم عاصفة الحرب فاوشكت ان تقوض ما بنيتم من الاعمال
في عمركم ، وما بنيتم من الآمال لغدكم. من اجل بلوغ القمم
ناضلت وتألمتم لكنكم انتصرتم. ومن اجل الاحتفاظ بهذه
القمم تناضلون وتتألمون لكنكم ستنتصرون. ومن اجل
هذا ايضاً ، من اجل بلوغ القمم ، يتحد معكم جميع الشرفاء
في العالم ، على النضال والالم والانتصار ، واننا لنعاهدكم ،
نحن ، على ان نبذل واجبنا في النضال ، ونتحمل قسطنا من

الالم ، لكي نستحق التمتع بثمرات النصر .
ولقد كنا ، نحن العرب ، دائماً ، اوفياء بعهودنا ، مخلصين
لمثلنا ، مناضلين من اجل الهدى ، سابقين في ضروب الشجاعة ،
لا نهاب الموت في سبيل الحياة . فارجعوا البصر في التاريخ
العربي تروا فيه الوف الابطال يقولون كما قال خالد بن الوليد
عند الاحتضار : « لقد شهدت مائة زحف او زهاءها وما
في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة او طعنة او رمية ، ثم
ها انذا اموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت اعين
الجناء » . بل انكم لترون القرآن ينكر ان يكون الجبان
مسلماً : « يحلفون بالله جهد ايمانهم انهم لمحكم ، وما هم منكم ،
ولكنهم قوم يفرقون (أي يخافون) لو يجدون ملجأ او
مغارات او مدخلاً لولوا اليه وهم يجمعون »

ولا ريب في ان ملايين المسلمين السوفياتيين يعرفون هذا
ويشجعهم على النضال ، ألم يقرأوا في القرآن قوله : « وان
طائفتان اقتلتا فاصلحا بينهما ، فان بغت احدهما على
الاخرى فقاتلوا التي تبغي » . ثم ألم يقرأوا قوله : « ومن
اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » بلى لقد
قرأوه وقرأوا قول النبي : « اذا رأيت امتي تهاب الظالم ان
تقول له انك ظالم فقد تودع منها » فعرفوا ان الاسلام
ثورة على الظلم ، ودعوة الى العدل الاقتصادي : « وليس
للانسان الا ما سعى » والتضامن الاجتماعي : « كلکم راع
وکلکم مسؤول » . وتآخي الشعوب : « يا ايها الناس إنا

خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .
فما انتم ترون ما بيننا وبينكم من وجوه الشبه واواصر
القربى ، يوم كنا راية الحق وجنوده . واذا كان لم يبق لنا
من ذلك الميراث العظيم سوى رايته ، فان نضالنا متواصل
لتجنيد الجنود .

فاليكم يا جنود الحق تحية بسيطة صادقة متفائلة ، تحية ولاء
واخاء وتعاهد على النضال ، يوجهها احفاد محمد بن عبد الله
وابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب و خالد بن الوليد والوف
الابطال الاحرار الذين كانوا مثلكم : جنود الحق .

٧ تشرين الثاني سنة ١٩٦٢



نضال الشعب الفرنسي

في كل يوم جديد يسجل الشعب الفرنسي انتصاراً جديداً في مقاومة الفاتح ، وخطوة جديدة يخطوها في الطريق التي يشقها بين حراب الطغاة من أجل حرية وطنه .

في الشهور الاولى من الاحتلال حاول الالمان ان يفاجئوا هذا الشعب الباسل ، وهو في صدمة الانكسار وغمرة الحيرة ، بدعائيتهم المرائية المضللة ، فيجروا عناصره الضعيفة الى معسكر « النظام الجديد » . وكان انصار سياسة التعاون من الفرنسيين ، يلقون في روع مواطنيهم ان الجيش الالماني لا يُغلب ، بل لا يقاوم ، فهو منتصر حتماً وباسط سلطانه على اوروبا ، فمن العبث تحدي العاصفة الباغية ، وخير للمرء ان ينحني امامها فياً من خطرها من ان يقف في وجهها فيعرض نفسه للهلاك . وكان الالمان يأملون ان تصيب هذه الدعاية نجاحاً ، فيهرع الشعب الفرنسي لخدمتهم والتعاون معهم ، لينال الخطوة في عين

الغالب فلا يعامله معاملة المغلوب . وكانوا يحسبون ان لصنائعهم من الفرنسيين نفوذاً شعبياً خليقاً بان ينقل الشعب الفرنسي من طور الى طور ، فيسلم بالامر الواقع ، ويخضع له ، ويستكين . للشعب الفرنسي ، كغيره من الشعوب ، حسنه وعيوبه ، لكنه يحتفظ دائماً ، وفي غمرة الكوارث ، بفضيلة ثينة هي ولعه بالسخرية ، الا ما كان منها موجّهاً اليه والى مقدساته في الحياة ، فانه لينقلب على الساخر حينئذ بسخرية أمر واقسى وأنفذ الى الاعماق . ومن ثم استحال على ابناء الريخ الثالث ، وهم على ما نعلم من صلف وجبروت وكبرياء ، ان يخدعوا احفاد الثورة الفرنسية بمهزلة سموها سياسة التعاون وما هي الا التسليم للفتح والتخاذل امام الطغيان .

واظهر مظاهر الاخفاق الذي منيت به سياسة النفاق الالمانية في فرنسا ، اخفاقها في تأليف الاحزاب . فقد عرف الالمان ان في الفرنسيين مساً من شيطان السياسة ، فراؤوا ، وقد الفوا جميع الاحزاب السياسية ، ان يتطوعوا بتأليف احزاب فرنسية جديدة ، فانشأوا « الحرس الفرنسي » ، واسسوا له فروعاً ومكاتب في امهات المدن الفرنسية ، لكن هذه المكاتب ظلة خالية الا من الموظفين المأجورين ، ولم تتلق سوى زيارة الاحجار التي رُجم بها اولئك الموظفون المأجورون .

بعد « الحرس الفرنسي » انشأ الالمان « العصبة الفرنسية » وعهدوا بتنظيمها الى رجل يدعي كوستانديني قيل انه كان يعمل في احدى طائرات القنص ، فاثبت هذا القناص براعة

تجلت في عدم قنص الاعضاء لعصبته ... الا انه لم يياس ،
واصدر جريدة سماها « النداء » وملاها بالدعوة الى مبادئه ، لكن
عشاً كان يحاول ، اذ ظل نداؤه دون جواب .

واشدد غضب الغستابو امام هذه التجارب المخففة ، وتضاعف
جهدها لتحقيق مقاصدها ، ف وقعت على نائب سابق يدعى
ديلوناي ، اسس حزب « النار » ، وسمى نفسه « سيد النار » ،
وجعل مقره في البناية التي كانت تشغلها نقابات العمال ، واصدر
منشورات صفراء وخضراء وحمراء تفيض حماسة ملتبهة ! لكن
الفرنسيين استقبلوا هذه النار ببرودة الثلج ، واضطر الالمان
بعد ستة اشهر من استخدام ديلوناي ان ينعموه من مغادرة
مكتبه اذ تبين انه مصاب بالجنون ، وان مرضه يتفاقم كلما
اخفق في ادراك مبتغاه .

وجيء اخيراً بمارسيل ديا الذي بلغ من تعاليه وكبريائه
انه اصبح يرى نفسه فوق جميع الفرنسيين ثقافة وذكاء وخبرة ،
وبلغ من تسفله وانحطاطه انه غدا آلة في ايدي اعداء وطنه .
انشأ ديا حزب « الائتلاف القومي الشعبي » بالتعاون مع اوجين
ديلونكل الذي كان قبل الحرب قائد المنظمة الارهابية المعروفة
باسم الكوغولار ، وهي احد الفروع النشيطة للطابور الخامس في
فرنسا . لكن زعمي الائتلاف لم يلبثا ان اختلفا ، فبقي ديا
وحده ، والف ديلونكل حزباً جديداً باسم « الحركة الاجتماعية
الثورية » . وبعد تأليف هذا الحزب باسابيع معدودة وجدت في
نهر السين جثة تونيا ماس سكرتيرة ديلونكل ، واتهم الرأي العام

بقتلها اثنين من اعضاء الكوغولار هما فوران وديلاكور اللذان اتهما قبل الحرب باغتيال الاخوين روسلي المناضلين الشهيرين ضد الفاشستية في ايطاليا . وبعد شهر من مقتل تونيا ماس اعلنت احدى الصحف نبأ زواج فوران بأبنة ديلونكل ، وتساءلت جريدة ديا عن سبب صمت المحققين في قضية سكرتيرة « حزب الحركة الاجتماعية الثورية » .

في تلك الاثناء ظهر حزب جديد هو « الحزب الشعبي » ، أسسه جاك دوريو . وعشاً حاول هذا الرجل ، الذي لم يكن شعبياً ، ان يعيد الى حظيرته بعض الشباب الذين اضلهم بدعايته قبل الحرب ، فحتى هؤلاء قد احتقروه وانقضوا من حوله .. وبقي دوريو الحزب كله ، كما بقي اسمه وحيداً في « لجنة » الحزب .

امام هذه المحاولات العديدة التي اخلفت ظنون الالمان ، لم يجد هؤلاء بدءاً من ان يرفعوا القناع الذي كانوا يجربون به قبحهم وضراوتهم ، وان ينشؤوا في عنق فرنسا مخالفهم العريقة في الاجرام . واذا المقص الذي كان يعمل في الصوف الفرنسي بمهارة فائقة ورفق مقصود ، يبلغ اللحم . واذا الضحية التي كانت تتحمل الاذى كارهة ذاهلة ، تتماثل تحت يد الجلاد . وكانت اسطورة المناعة التي نسبت للجيش الالماني قد دفنت في ثلوج روسيا مع ملايين الجنود الالمان الذين قضوا هناك ، فاشرق في فرنسا الرجاء . ثم كانت قضية العمال الذين حاولت السلطة ارغامهم على الخدمة في المصانع الالمانية ، فاشتعلت

هذه القضية النار في الصدور . واذا اضفنا الى هذه العوامل الثلاثة ما تعانيه تلك الامة الكبيرة من بؤس وجوع وارهاق ، ندرك حقيقة البركان الذي يحيش وينذر بالانفجار في قطر حفل تاريخه باجماد الوطنية الواعية الثائرة .

ان التعويض المالي الذي ارغمت فرنسا على تأديته للفتح وقدره اربعمائة مليون فرنك في كل يوم ، قد افضى بفرنسا الى كارثة اقتصادية رابعة . وقد تطرقت الصحيفة السويسرية « والكرشت » اخيراً الى هذا الموضوع فقالت ان النقد الورقي المتداول قد بلغ ثلاثمائة مليار فرنك ، وان الديون التي تستحق على الدولة في نهاية ١٩٤٢ تجوز التسعمائة مليار فرنك .

وقد وضع الالمان ايديهم على المشاريع الصناعية الفرنسية الكبرى ، ولا سيما مصانع المنتجات الكيماوية والمعدنية والانشاءات الميكانيكية ومعامل النسيج . وارسلوا الى بلادهم أكثر القطر والعربات والسكك والاسلاك وغيرها من المواد الحديدية . ورغم الاحتياج المتزايد الى مواد الاعاشة في فرنسا ، طلبوا من حكومة فيشي ان ترسل الى المانيا خمسمائة الف طن من القمح ، فاضطرت ان تتنازل عن ربع الحبوب التي جلبتها من مستعمراتها لتكون بذاراً للموسم القادم .

وقد قسمت السلطة الالمانية المنطقة المحتلة من فرنسا الى عدة مناطق . واعتبرت الالزاس واللورين منطقة ملحقة بالمانيا اقتصادياً ، وفرضت على هذه المقاطعات ان تسلم المانيا جميع محصولاتها الزراعية .

ومن عجب ان تتذمر الصحف الالمانية ، بعد هذا ، من
اهتمام الباريسيين بانباء الجبهة الشرقية ، وان تنصح طلاب
الصوربون الذين اغلق معهدهم ، والعمال الذين اغلقت مصانعهم ،
واقرباء الشهداء والاسرى ، وجميع الجائعين والمضطهدين - ان
يكفوا عن تسقط الانباء السوفياتية التي تقدم لهم مثلاً مشجعاً
على النضال ضد المستعمر ، وان تزين لهم الالتحاق بالفرق التي
يؤلفها دارلان للسهر على سلامة الجيوش الالمانية وحمايتها من
الفرنسيين وحلفائهم ؟ لكن شباب باريس قد اجابوا على هذه
النصيحة بنصيحة اجدى منها ، اذ الصقوا على جدران المدينة
الوفاً من المناشير تدعو الجنود الالمان انفسهم الى تتبع انباء
الجبهة السوفياتية .

وليس شباب باريس وحدهم يتحدثون الفاتح ويتصدون له ،
فالفرنسيون كلهم يقفون منه هذا الموقف الباسل ، ومن الخطأ
ان نحسب ان هناك فرنسا مخلصه وفرنسا خائنة ، فثمة فرنسا
واحدة ونفر من الخونة ، وهؤلاء يعرفون هذه الحقيقة جيداً ،
واذا كانت حكومة فيشي لم تسلم الاسطول للالمان فلانها واثقة
من ان بحارة الاسطول وضباطه لن يسلموه .

وقد كانت توحيد منظمات المقاومة السرية في فرنسا ، على
تباين الاراء السياسية التي تدن بها ، انتصاراً راسخ الدعائم
ادركه الشعب الفرنسي بوطنيته ووعيه . وكانت من بوادره
العظيمة ذلك الموقف الرائع الذي يقفه اليوم امام تجار العيد
الذين يريدون تسخير العمال الفرنسيين لخدمة عدوهم وانتاج

الاسلحة التي توجه الى صدورهم .

وقد نشرت مجلة « لايف » الاميركية في احد اعدادها الاخيرة ، تفصيلات هامة عن نشاط المقاومة السرية في فرنسا ، ادلى بها قائد من قواد هذه الحركة وصل حديثاً الى واشنطن وتسمى فيها باسم دوران . وقد استطاع دوران الحصول على تقارير هامة قدمتها الشرطة الالمانية لقيادتها ، كما حصل على ثبوت بأسماء المعتقلين في ٢٠ مدينة من كبار المدن الفرنسية ، وهو يعتقد بان هناك اربعمائة الف فرنسي معتقلين بتهم سياسية منهم مائة وعشرون الف سجين في المنطقة غير المحتلة .

واشار دوران الى ان اعمال التخريب وتهريب المؤن التي يلج الالمان في طلبها ، اصبحت واجبا وطنياً نظمت تنفيذها منظمات سرية عديدة ، لكن نتائج اعمالها لا تزال مجهولة . وقد اكد ان المنظمة الرئيسية التي تعمل في الخفاء تضم ما يزيد عن خمسين الف عضو مسلح حولهم عدة ملايين من المؤيدين . وقال ان الصحف السرية تطبع مائتي الف نسخة لا يقل قراؤها عن العشرين مليون فرنسي . ونوه بان العمال والفلاحين والطلاب والمعلمين ، وجميع المثقفين ورجال الدين ، وابناء الطبقات الوسطى ، وبالتالي اكثرية الشعب الفرنسي ، يؤيدون هذه الجمعيات الباسلة ويناصرونها ويمدونها بالاعون الادبي والمادي . وتطبع الاوساط الكاثوليكية جريدتها السرية الخاصة « شهادة مسيحية » فتهاجم فيها النازيين وتفضح اكاذيب الحكومة الفيشية .

ان النضال الوطني الذي تعلنه الجماهير الشعبية الفرنسية ،

يتسع يوماً فيوماً وساعة بعد ساعة في المنطقة المحتلة وغير المحتلة على السواء . وليست الانباء التي تتسرب باستمرار عن المظاهرات الصاخبة التي يقوم بها العمال والفلاحون والمثقفون ، والاصطدام الدامي بينهم وبين النازيين او صنائع النازيين ، الا دليلاً صارخاً على ان الانتظار قد اصبح عسيراً جداً على اولئك الاحرار . لكن ماذا ينتظر الوطنيون الفرنسيون ؟

لقد اجاب اندره فيليب على هذا السؤال ، في حديث افضى به الى الصحافة الانكليزية على اثر هربه من وطنه ، فقال ان فرنسا تنتظر الجبهة الثانية .

وكلما تأخرت هذه الجبهة طال عذاب الفرنسيين ، وطال عذاب الشعوب الاوروبية ، وطال عذاب العالم ، فالشعب الفرنسي وشعوب العالم كلها ، تطالب الان بفتح الجبهة الثانية . ويوم يضع الحلفاء اقدامهم في القارة ، ينهض في ارض فرنسا ، وفي اوروبا باسرها ، جيش لجب حاشد من الرجال والنساء ، يعبد الطريق امام الحلفاء ، ويستعيد بجهاده الشخصي وجهاد رفاقه في السلاح ، حرية اوطانه وحرية العالم .

١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢

مَجَارَةُ طُولُونْ

لما ذاع ، ذلك الصباح ، نبأ انتحار القطع الحربية الراسية في ميناء طولون ، اكبر العالم تلك التضحية العظمى ، وتوجه الناس بقلوبهم شطر البحارة الذين استشهدوا مع مراكبهم فكفروا بموتهم عن اخطاء كبار القادة ، شطر اولئك الابطال الذين لم يبذلوا حياتهم في نشوة النضال واحتدام العراك بل في ساعة من ساعات الوعي الهادى العميق ادركوا فيها واجبهم الوطني وادوه خير اداء .

في ١١ تشرين الثاني مزق هتلر المعاهدة الالمانية الفرنسية بالسيف الذي املاها ، واخذت برلين عن فيشي العباء الذي ناءت به وعجزت عنه : عباء اخضاع الشعب الفرنسي . واراد الدهاء الناري ان يدغدغ الكبرياء العسكرية الفرنسية ريثما يعد العدة للاستيلاء على الاسطول فجعل من طولون واحة حرة في صحراء العبودية .

وفي ٢٧ تشرين الثاني ، شعر بحجارة طولون بحركات عسكرية مريبة عند مداخل المدينة ، فنادوا وتوافوا الى ظهور مراكبهم . ونامت الدنيا يومذاك لكن طولون لم تتم ، ولبثت متحفزة لأمر عظيم . وعند انتصاف الليل ، لما أُرِيت الطائرات ، وتدفقت الدبابات ، وبسط الالمان ايديهم للاستيلاء على الغنيمة التي طالما تأقوا اليها وعللوا انفسهم بها - اقدم ابناء البحر على تضحياتهم التي لا يضاهيها اتساعاً وعمقاً سوى القبر الذي انحدروا اليه : تلك صورة لم يشهدها غير الظلام فبقيت جزءاً منه ، لكن ظلام تلك الليلة ، كان كسواد العين الكحلاء جمالاً ونوراً !

ولما لاح الصبح ، وسالت دماء الشفق على جوانب الافق ، كانت المراكب المضطجعة في اليم تصعد أنفاسها الاخيرة ، والسنة النيران التي لم يخمد ضرامها في مستودعات الذخيرة تتلوى كمشاعل المآتم . لقد ابتلع البحر في بضع ساعات ملايين من ساعات العمل . لقد فقدت فرنسا اسطولاً كبيراً لكنها استعادت شرفها واستعادت أملها بالانتصار ، لان يوم ٢٧ تشرين الثاني لم يكن فقط خاتمة الاخطاء والمحاولات التي ارادت ان توجه فرنسا في غير وجهتها ، بل هو ايضاً اول خطوة في طريق الخلاص يخطوها الشعب الذي دك الباستيل واسقط جبابرة الطغاة ، والذي اثبت مرة اخرى انه لا يمكن ان يخضع للنير الذي فرض عليه وزين له ، وسيظل ماضياً على سنته موفياً على قصده حتى يأتي يوم يضع عنه إصره والاغلال ، وانه ليوم آت لا ريب فيه .

ليس يعدل تضحية البحار الفرنسي في عظيم فائدتها ورفيع معناها ، الا تضحية العامل الروسي الذي يهدم ما بناه في خمس وعشرين سنة لئلا يقع في يد اللص المغير . ان ذلك البحار وهذا العامل أخوان في الألم ورفيقان في الجهاد . وان ايديهما لأشبه بسيف أخيل الذي كان يشفي طعنة سنانه . فليت شعري ماذا يقول الناعبون الذين يهدمون وهم يزعمون انهم يبنون ؟ ماذا يقول المارشال الفرنسي مثلاً في البحار الفرنسي الذي آثر الموت على حياة الذل ؟ ألا لشد ما تغري المقارنة بين هذين الضدين : حي أمات امة وميت أحيائها .

لكن المارشال العجوز ، الفرنسي سابقاً كما يقول ايليا اهرنبورغ ، لا يحفل بهذا ، ولا يندى جبينه عاراً اذ يقول له هتلر وكأنه يشتمه : انا واثق من انك لم تشترك في اي حركة من حركات المقاومة !

ان بيتان وشركاءه لمسؤولون أمام التاريخ عن الاسطول ، وعن الشهداء الذين ضحوا بانفسهم معه ، لكن المسؤولية المباشرة تقع على عاتق خائن آخر ، يرتفع صوته اليوم باعجوبة .. من جبهة نسميها « جبهة الحرية » ، هو دارلان الذي القى بالاسطول يوم المعاهدة المزيفة ، الى الشواطىء الفرنسية ، فقطع عليه بذلك سبيل الالتحاق بالقوى الفرنسية المناضلة .

واليوم تشهد طولون اول بادرة من بوادر الثورة التي ستحرر فرنسا ممن احتلوها وممن خانوها ، وفي طليعتهم ذلك الاميرال الذي اضطر الاسطول بتصرفه الفاضح ، لسلوك هذا السبيل

وملاقاة هذا المصير .

وفيما المدينة المفجوعة تنزو الى حطام الجواري التي كانت في البحر كالأعلام ، تسمع من وراء البحار صوت قائد جديد يلخص المأساة ويستخلص العبرة :

« ان اسطول طولون ، اسطول فرنسا ، قد تلاشى . فحين اوشكت المراكب ان تقع في يد العدو ، جاش الوعي القومي في نفوس الرّكب ، وتمزق امام عيون القواد والضباط والبحارة ، في لحظة واحدة ، ذلك الحجاب الكثيف الذي ظل الكذب ينصبه امام العيون ، منذ حزيران ١٩٤٠ ، فأدركوا في لحظة واحدة ، أي مصير صاروا اليه .

ولم يجد اولئك البحارة الا مخرجاً واحداً ، فدمروا بأيديهم العمارة الفرنسية ، لكي يجنبوا الوطن ، على الاقل ، ما ينتابه من عار اذا رأى مراكبه تصبح مراكب عدوة . لقد سمعت فرنسا مدافع طولون ، ودوي الانفجارات فيها ، وطلقات البندقيات اليأسة ، فسرت فيها رعشة الالم ، والرثاء ، والغضب . وان هذه الكارثة التي تضاف الى جميع كوارثها ، لتكمل نهضتها ووحدتها - اجل وحدتها - في الارادة الجامعة التي تحدوها لان تمحو ، بالانتصار ، جميع النتائج القاسية التي ادت اليها النكبة والاستسلام لها :

فالى الانتصار ، اذ ليس من طريق آخر ، ولم يكن هناك ابداً غير هذه الطريق . »

• كانون الاول سنة ١٩٤٢

طريق الحرية

منذ عام وبعض عام .. وقد انبسط على الدنيا ظلام عميق
كالبحر العميق ، ففترق الناس ايدي سبا : منهم من طلب الحق
في دار الباطل او جادل بالباطل ليدحض الحق ، ومنهم من
لبث في غيب الخيرة لا يدري على اي نهج يسير ، ومنهم من
جعل يرقب الاحداث ليكون على المغلوب مع الغالب ! في
تلك العاصفة من تشعب السبل واضطراب الآراء ، شققنا
نحن طريقنا السوي واعلنا رأينا الواضح : طريقاً سلكناه منذ
سنين ، ورأياً خبرناه وعُرفنا به ، لم تفتنا عنها المفاتن ، ولم
يضلنا المضلون ، ولم تأخذنا خيرة او رهبة ، لاننا كنا نعمل
لمصلحة الوطن وحدها فلا نستطيع الترخص في حقه والتفريط
في امانيه ، وكان غيرنا يعمل لمصلحته الشخصية وحدها فيبيع لنفسه
ان يجعل من قضية الوطن ألهية يمثل دوره فيها عندما يتبغي
وكما يشاء ، غير متحرّج ان يكون بمعزل عن امته اذا ألمّ بها

خطر ، ولا متأثم ان يحارب المجموع اذا كانت مصلحته الفردية تنافي المصلحة العامة .

كانت مصلحة بلادنا تقضي بان تتألف فيها جماعة واعية تحارب ضلالات العنصرية والانانية والاستثمار ، وتقف للنازية ودعاتها بالمرصاد ، وتحمي حقوق الشعب من المحتكرين ، وتحمل السلاح اذا اقتضى حمل السلاح ، للدفاع عن حاضرنا ومستقبلنا ، عن تراثنا وامانينا ، عن قبور آبائنا وملعب اطفالنا ، عن الكتاب العربي والحرف العربي ، عن الرغيف وحببة الزيتون - من قطاع الطرق حثالات برلين وروما الذين رباهم الطاغيتان كما تربي الوحوش على البطش والغدر ، واطلقاهم في الدنيا يرهقونها ظمأً وجوراً ، ويعيشون فيها فساداً وكفراً ، ويفرضون عليها طغياناً يرتجف له قلب الارض ..

كان من مصلحة بلادنا ان تتألف فيها مثل هذه الجماعة المناضلة للسهر على حقوق امتنا خلال هذه الحرب وعلان موقفنا الصريح منها ، لان الحياذ الذي اعتصم به اكثر المتزعمين ضرب من الانتحار ، والانتحار اسوأ ما يكون خلاصاً وملاذاً ، لانه اقرار بالعجز واستخذاء امام الغاصب . ولم يقم في سوريا ولبنان من يمحو تلك الوصمة عن وطننا وينهض بالواجب القومي العظيم ، غير عصبتنا ، عصبة مكافحة النازية والفاشستية ، وغير اولئك السابقين الذين كانوا قد خرجوا حديثاً من السجون والمحابىء ليستأنفوا النضال الذي سجنوا وشردوا من اجله : خالد بكداش وفرج الله الحلو ونقولا شاوي ورشاد عيسى ،

ورفاقهم ، قواد اكبر حركة وطنية واعية في البلاد العربية .
كانت الجيوش الالمانية تزحف انذاك على الاتحاد السوفياتي ،
بعد ان جعلت من اوربا سجنا موصداً على فرائس الظلم .
وكانت اليابان حديثة عهد بالحرب وهي تنتقل من انتصار الى
آخر . وكان اليأس يضغط بهوله على القلوب الضعيفة فلا يبقى
لها قبساً من الرجاء . لكننا لم نقط ، ولم نفتز لحظة عن النضال
بل ازددنا فيه اندفاعاً .

وكان يحدونا الى هذا النضال ثلاثة دوافع اساسية : اولها
اننا ننكر قول من يزعم انه خير للمرء ان يعيش عبداً من ان
يموت ، لان العبد في رأينا لا يعيش بل يتعفن ، وينحط ، ويموت
موتاً بطيئاً ذليلاً . وثانيها اننا كنا نرى انكسار النازية امراً
ممكناً اذا لاقت مقاومة جدية واتحدت الشعوب الديموقراطية
اتحاداً وثيقاً شريفاً في محاربتها . وثالثها اننا نأمل ان تكون
هذه الحرب التي اضرمت وقودها النزعات الاستعمارية والمطامع
الاستعمارية سبيلاً الى تطهير العالم الى الابد من هذه النزعات
والمطامع فيكون الانتصار على النازية انتصاراً لامانينا القومية
والحرية التي نطمح اليها .

ومن ثم كان نضالنا يشتد كلما اقترب الخطر النازي من
بلادنا ، ويوم احتل روميل مدينة طبرق ودنا من العلمين مهدداً
الاسكندرية ، وبدأ بعض الناس يخالون ان الالمان سيهبطون
بلادنا بين ليلة وضحاها ، وطفق آخرون يعدون حقائبهم
للهرب من وجه الوحوش بدلاً من ان يفكروا بقتلها ، اقامت

عصبتنا اكبر اجتماع شعبي في دمشق ، واوضحنا لابناء الشام البواسل واجبههم الوطني من الخطر الذي اهدق ببلادنا .
هكذا شققنا طريقنا في زحمة الحياة وقد غامت آفاقها بالسحاب الثقيل ، وتناوحت على جانبيها الصواعق الهوج .
ونهبنا في سيرنا الى الامام ، فلم يجرأ احد ان يسد الطريق في وجه الوطنية الصحيحة ، لم يجرأ احد ان يسد الطريق في وجهنا لان الجميع كانوا يعرفون معرفة اليقين اننا لا ننشد سوى امانى الشعوب العربية ولا نهذف لغيرها ، فنحن سلم لمن يسالمها وحرب لمن يحاربها وان كان ابعد الناس عنا او اقربهم اليها .

وسارت قافلتنا مهدية هادية ، والطريق تتسع في كل ساعة ، والقافلة تتعاضد في كل يوم ، لاننا في كل يوم وفي كل ساعة كنا نلتقي امثالنا من المثقفين والعمال وصغار التجار الذين لم يقتل شعورهم القومي وهم جبان ، ولم تختنق وجدانهم الاجتماعي اغراض شخصية ، فعرفوا ان وطنهم هو هذه الكثرة الكثيرة من الشعب المنتج العامل ، وايقنوا ان عدوهم هو كل من يهدد هذا الشعب وحقوقه ومطامحه ، وآمنوا بان واجبههم الاول هو الدفاع عن هذا الشعب واعادته الى مكانه من ثبوت الشرف وتاريخ البطولة . لقد كانت طريقنا تتوعر حيناً وتسهل حيناً ، لكنها ظلت في صعود دائم ، وفي اشراق دائم ، وفي اتساع دائم ، تنهج قدماً نحو المستقبل وترتفع دراكاً نحو الشمس .

وبدا التاريخ عند اعتاب موسكو صفحة جديدة . فاذا الطاغية الذي حسب انه سيدخل عاصمة الحق والنور في ابهة وحفل عظيم يرتد عنها خاسئاً مدخوراً . وسباستوبول الصغيرة تصفع وجه الفاتح الكبير . وهجوم الربيع ينقلب الى هزيمة الخريف . وستالينغراد تدخل في حساب روميل وتستنزف القوى التي كان يعدها لمهاجمة الاسكندرية . واذا بالجيش الاحمر ينقض كالغضب الاحمر ، فيطحن العدو طحن الحصيد ويعلم الدنيا كيف تكون الوطنية الصحيحة .

وتنفس الامل في العالم . وقوي اليقين بضرورة مقاومة المحور وامكان التغلب عليه . فاذا الشعوب الاوربية التي كانت تعيش تحت القبضة النازية المهددة تصبح قبضة تهدد النازية . وجيوش الحلفاء في افريقيا تتحول من الدفاع الى الهجوم فتحطم آخر امل لهتلر في هذه البقعة من الارض ، وتهيء سبيلاً لضربه في القارة . وبجارة طولون يقومون بمآثرهم الوطنية العظيمة مفضلين الموت في القرار الرهيب على الاستسلام الخزي . واذا الشرق والغرب يتحفظان للوثوب .

وعاد العرب فطلعوا الى المستقبل ، وقد انجلت عنه الغيوم ، فايقنوا بان هذا المستقبل يتوقف على انتصار الديمقراطية ، وقوي ايمانهم بافضلية المبادئ الديمقراطية وشعورهم بضرورة توسيع الحريات الديمقراطية في بلادهم . اما نظام هتلر فقل اليوم من يفكر فيه ويستوحيه : ان اطلال اوربا تصفه اصدق وصف ، واوروبا ت جيش بين هاتيك الاطلال كمرجل الحقد ، ولا

بد لمرجل الحقد من الانفجار .
وهكذا نستقبل هذا العام في جو ابعث على الامل وادعى
الى التقاؤل :

العراق تعلن الحرب رسمياً على المحور فيكون لصنيعها صدى
مجد لدى جميع العرب . وسوريا ولبنان يقبلان على عهد دستوري
تزداد فيه واجباتنا الوطنية ومسؤولياتنا التاريخية . والبلاد العربية
كلها تحشد قواها الحرة لمحاربة النازية والرجعية والصهيونية وتستعد
لغد حر تتمتع فيه بامانيها القومية . والمتربصون يحطمون اغلال
التربص كما تتحطم الاقفال السحرية عن الابواب المرصودة في
حكايات الجن . والجميع ينضمون ، واحداً بعد آخر ، الى
قافلة الحرية ، الا اولئك الذين لم يجدوا حرجاً في الخيانة ولم
يجدوا سبيلاً الى النكوص ، فهؤلاء وحدهم ، وهم لحسن الحظ
اقل من القليل ، يخبيء واحداهم وجهه من العار .

اما قافلة الحرية فهي تتعظم وتسير . واما طريق الحرية فهي
تتسع وترتفع . ويا لها من طريق مترامية اين منها المبتدا والمنتهى ؟
لقد مرت مرور المستنكر بفرصوفيا وباريس ، ثم مرت مرور
الظافر بكل مدينة وقرية من مدن الاتحاد السوفياتي وقراه ،
ووصلت موسكو وسباستوبول وستالينغراد بطولون وطرابلس
الغرب وبغداد ، وقد تتجه في العام المقبل شطر روما وطوكيو
وتمر بغابة الوحوش التي تسمى برلين .

عيد الجيش الأحمر

يقول ابو فراس الحمداني :

لئن خلق الانام لحسو كأس

ومزمار وطنبور وعود

فلم يخلق بنو حمدان الا

لمجد او لبأس او لجود

وهذه حلب ، عاصمة الحمدانيين (١) ، تثبت صدق شاعرنا مرة

اخرى . هذه حلب تشارك الدنيا احتفالها بعيد الجيش الاحمر :

جيش المجد والبأس والجود . ومن حق هذه المدينة العربية

المناضلة ان تحتفل بهذا العيد العظيم كغيرها واكثر من غيرها ،

فهي اخت لستالينغراد وموسكو ولينينغراد ، عانت في تاريخها

الطويل بعض ما عانين من عذاب ، وطمحت الى ما ادركن

من نعيم ، وهي اليوم تنظر اليهن لتسير سيرتهن في الجهاد

(١) القى هذا الخطاب بحلب في احتفالها بعيد الجيش الاحمر سنة ١٩٤٣

وتنتصر انتصارهن على قوى العبودية . فاحتفال حلب العربية بعيد الجيش الاحمر ليس فقط تقديرًا منها لبطولته الفريدة ووطنيته الصادقة ، وليس فقط اعترافاً بحيمله لانه انقذها من احوال الحرب ووصمة الاستعمار النازي . بل هو ايضاً احتفال بما تصبو اليه من حقوق اجتماعية واماني قومية ، هو احتفال بنضالها الطويل المقدس من اجل استقلال العرب وحريتهم وتراثهم .

لقد كان الامير حمدان رأس الاسرة الحمدانية ، أول الثائرين على تفسخ الدولة العباسية وتدخل الاعاجم في شؤونها ، وانفراط عقدها الى امارات ودويلات واقطاعات . وكان حفيده سيف الدولة ، امير حلب ، بطل الدفاع عن العروبة والاسلام ، يوم وقف مع ابناء هذه المدينة ، في مفترق التاريخ ، مدافعاً عن البلاد العربية ذائداً عن تراثها الفكري وكيانها القومي . ولما حشد القائد البيزنطي نيسفور جيوشه اللجة ، وهاجم سوريا الشمالية ، واستطاع ان يطوق حلب ، شهد العالم يومذاك عجباً . . شهد دفاعاً ضارياً معجزاً . كانت الجيوش البيزنطية تفتح المنافذ في اسوار هذه المدينة ، فاذا كان الليل اجتمع اهلها لبناء الثغرات فلا يصبحون الا وقد فرغوا منها . غير ان قوة حلب الدفاعية كانت اضعف من ان تصمد لذلك الحصار طويلاً ، فاعتصم عدد كبير من الاهالي بالقلعة وتدفع البيزنطيون على المدينة ينهبون الارزاق ويهتكون الاعراض ويقتلون الاطفال ويحرقون الكتب ويخربون المساجد . لكن القلعة ظلت متينة ابداً ، حتى ينس نيسفور من افتتاحها ، وخشي ان يعود سيف الدولة الى مهاجمته

في قلب عاصمته فانسحب منها . وحلب تحتل اليوم بأبطال
ستالينغراد ولينينغراد وموسكو ومئات المدن السوفياتية التي
صمدت في وجه المستعمرين الالمان وقهرتهم ، فكأنها تحتل
بأبطال تاريخها وتاريخ العرب ، الذين عززوا تقاليد الفروسية
والحرية في العالم . وهي تهتف للجيش الاحمر الذي انقذها من
نيسفور آخر يعيد سيرة الظلم فيها ، فكأنها تهتف لجيش سيف
الدولة وحماة القلعة الشهباء ، بفضل الجيش الاحمر المدافع عن
السلام وحریات الشعوب لم تطأ ارجل الوحش النازي أرض هذه
المدينة وغيرها من المدن العربية ، وظلت سالمة ، خيراتها موفورة ،
واعراضها مصونة ، وكتبها تقرأ بشغف ، وأطفالها يتسمون للحياة .

وفي ظلمة العهد الحميدي تمخضت هذه المدينة بمفكر عربي
مجاهد آلمه ان العرب الذين كان واحدهم ينادي امير المؤمنين :
يا عمر ! ويهتف به : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بحد
السيف - قد صاروا الى عهد يُقتل الطفل فيه بحجر امه فلا تجراً
ان تبكي عليه . ذلك هو عبد الرحمن الكواكبي الذي دوى
صوته من الشهباء الى ام القرى ، بكلمات حق لم تذهب مع
الريح بل ذهبت وستذهب بالاوئاد ، لانها زرعت في تربتنا بذور
الثورة العربية والبعث العربي . واحتفال حلب بعيد الجيش
الاحمر الذي حطم انيار العبودية وما يزال يحطمها ، هو ايضاً
احتفال بالثورة العربية وبالبعث العربي ، هو احتفال بالمفكرين
العرب من امثال عبد الرحمن الكواكبي الذي صرخ في وجه
الاستبداد جملة تلخص معنى احتفالنا بانتصار الاتحاد السوفياتي ،

وما ننشده من نضالنا ضد النازية - صرخة بسيطة عميقة يرددها كل حر في الدنيا ويحقق لها كل قلب كبير ، الا وهي :
ليسقط الاستبداد .

لقد خطب غوبلز منذ ايام في برلين ، محذراً العالم من الخطر الاحمر ، منذراً اياه بالفناء تحت اقدام البلاشفة، متوسلاً اليه ان يبادر الى توقيف سيلهم الجارف . فكان جواب العالم على خطاب غوبلز انه احتفل من اقصاه الى اقصاه بعيد الجيش الاحمر ، مثبتاً بذلك ان عهد الدعايات والاكاذيب قد ولى ، وان الغشاوة التي حجبت النظام السوفياتي بالامس عن بصر الناس قد تمزقت اليوم ، فظهر بحقيقته الرائعة المنيرة : نبراساً هادياً ، وعالمًا متأخياً ، ومعقلاً راسخاً للحرية . وها هي حلب تثبت انها ليست اقل وعياً ووفاء وطموحاً من نيويورك وبكين ولندن ، فتشارك مدن الشرق والغرب احتفالها بهذا العيد العظيم من اعياد الحرية .

ان اول صفات الجيش الاحمر ومزاياه انه ابن النظام السوفياتي الذي انتقل بالبلاد السوفياتية من عهد الى عهد ، وسجل ولادة عصر جديد في تاريخ البشرية . لقد رفع هذا العهد وجه الانسان من التراب بجعله سيداً لعمله لا عبداً له . فاذا بالانسان الجديد يخلق عالماً جديداً قوامه الفكر الحر والعمل المبدع والفرح المنير . وفيما الاقطار المتطورة الصناعة تعاني الازمات المستحكمة ، وتتخبط في مشاكلها الاقتصادية وما يتفرع عنها من مشاكل اجتماعية وسياسية ، كان هذا العالم

الجديد يصعد بخطى الجبابة من مستنقعات الذل والفقر والجهل الى القمم التي حلت بها الانسانية في تاريخها الطويل . لقد حطم هذا العالم القيود التي تعوق غيره عن النمو وتؤخر غيره عن مواصلة السير ، فيلغ في خمسة وعشرين عاماً مرحلة لا تسامى من مراحل التطور فاق فيها دولا سبقته الى ملاسة الحضارة بقرون عديدة . ولم يكن بلوغ هذه المرحلة في هذا الزمن القصير ، معجزة غريبة بل نتيجة طبيعية لتحرير الانسان من عبودية المادة وجعل مرافق الحياة ومكتشفات العلم واسباب العمل والثقافة والراحة ، في متناول جميع الناس وجميع الشعوب .

كانت روسيا القيصرية من اشد البلاد انحطاطاً . كانت بلاد العمال الجائعين والفلاحين البائسين ، بلاد الزراعة المتأخرة والحصاد الهزيل ، بلاد الطواغيت والامراض السارية ، بلاد البغاء والجريمة والجنون ، بلاد الاحقاد القومية والمذابح الدينية . وكانت الحكومة القيصرية تعذب الامم ، وتمتص دماء الشعوب ، وتثير بعضها على بعض ، وتقذف بها في حروب مستمرة خاسرة . فانقذ النظام السوفياتي تلك الشعوب من القيصرية وحروبها ودسائسها ومظالمها ، واعتقها من نير الامراء والخنانات الذين كانوا يتوارثونها ويتقاسمونها ويبيعونها ، وعزز قواها المنتجة فاصبحت تنتج لنفسها كل ما تحتاج اليه ، وحوّل المحراث والمجرفة الى تراكاتورات وآلات زراعية ، جعل من المنتجين اسياة البلاد ، ورفع المستوى الثقافي بين الجماهير ، ونشر الاخاء والمساواة بين الشعوب : « ما ترى في خلق

الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور .
سئل فلاح في العهد القيصري : « ماذا تصنع اذا اصبحت
قيصراً ؟ » فأجاب : « آكل خبزاً ! » . اما الان فان الخبز آخر
ما يفكر فيه الفلاح السوفياتي . ان فلاح اليوم الذي يعمل
بطريقة راقية ، يفكر ايضاً بطريقة راقية ، ويريد ان يعيش
بطريقة راقية .

وقد روى صحافي اجنبي زار الاتحاد السوفياتي انه التقى
طفلاً في قرية بولتافا في العاشرة من عمره ، فسأله ماذا يريد
أن يكون فأجابه الطفل : « اريد ان اصبغ مهندساً » فقال
الصحافي : « ولكن ، هل لديك المال الكافي لذلك ؟ » فدهش
الغلام ، لانه لم يفهم كيف ان طالب العلم يجب ان ينفق في
سبيل بغيته مالا . ولما ايقن بأن محدثه جاد لا هازل ، وادرك
ان الوضع الاقتصادي في بلاده يختلف عن الاوضاع الاقتصادية
في البلاد الاخرى ، اجاب محدثه بقوله : « ما اقسى الحياة
عندكم .. انه لمن الفظاعة ان لا يستطيع امرؤ مواصلة دراسته
حسب مواهبه ! »

تلك هي الآفاق الواسعة التي فتحتها النظام السوفياتي أمام
الانسان . لقد خلق هذا النظام شروطاً لم يعرف لها مثل
لتوفير الرخاء المادي والتقدم الفكري للانسان . والانسان في
الاتحاد السوفياتي هو الهدف الاسمي الذي يُضحى من أجله بكل
ثمن . ليس الانسان هناك مزبلة التاريخ كما يسميه الفاشستيون ،
وليس الجماهير عبيداً للكبورال النازي . ليس الانسان في

وطن ستالين آلة مسخرة لبناء الاهرامات ، او شيئاً ملحقاً بالارض
او بالآلة ، بل هو المبدع الذي يبني مصيره ويصنع تاريخه كما
يريد . ان الانسان قد تبوأ في الاتحاد السوفياتي ، لأول مرة
في التاريخ ، المكان اللائق بالانسان .

وفي عائلة الشعوب السوفياتية المتحدة ، نال كل شعب ما
ينشده من استقلال وحرية وبعث لتقاليده القومية . وساعدت
الحكومة السوفياتية الشعوب المتأخرة على احياء تاريخها وثقافتها ،
وعلى الالتحاق بموكب الامم التي سبقتها في مضمار الصناعة
والتقدم الاجتماعي ، فاذا الصحاري المحرقة المترامية في اسيا
الوسطى تتحول بفضل العلم والتعاون الى واحات وجنائ .
واذا الشعوب الشرقية التي ساءمتها القيصرية انواع العذاب ، فعاشت
تحت نيرها في ظلام من الجهل والفقر ، قد اتسع النظام
السوفياتي لحريةها القومية والمدنية والاجتماعية ، ووسّع امامها
مدى هذه الحريات ، ووفر لها وسائل تحقيقها . فاصبحت تفوق
الشعوب الاوربية حضارة ورقياً .

وكل هذا .. كل ما حققه الاتحاد السوفياتي في مدى خمسة
وعشرين عاماً لم يكن نهاية لما يمكن ان يتحقق ، بل كان
بداية لما يجب تحقيقه لكي يزداد فرح الانسان بالحياة ، ولكي
تغدو الحياة نفسها خصبة كاشد ما يكون الحصب ، مليئة كأكمل
ما يكون الامتلاء .

هكذا كانت تعيش الشعوب السوفياتية وقد اطمأنت في
بلادها وسكن بعضها الى بعض ، هكذا كان يعيش المواطنون

السوفييتيون في حرية كاملة ورخاء شامل ، اذ فاجأهم الطاغية بحربه الغادرة واقتحم بلادهم ليعيث فيها فساداً ويعيدهم الى عيش القطيع . ومن اجل هذا يجب السوفييتون وطنهم ويدافعون عنه بابلغ ما تدل عليه كلمة الدفاع الوطني من معنى . انهم لا يحبون وطنهم فقط لانه وطن رحيب تغسل شواطئه خمسة بحور ، او لانه حافل بالجبال العالية والمناجم الغنية والحقول الواسعة والغابات العذاري والانهار الزاخرة بالحياة . لكنهم يحبونه ايضاً وخصوصاً ، لان مطامح الانسان في هذا الوطن هي مطامح رحيبة طليقة لا تحدها حدود . انهم يحبونه لانه وطن سوفيائي ، ولان بحاره وانهاره وجباله ووديانه وحقوقه ومناجمه وغاباته هي سوفيائية ايضاً ، اي انها لهم جميعاً . من اجل هذا نرى الجندي الاحمر يقول في « نشيد الوطن » :

« وطن يزخر بالحقول والغابات والانهار

ذلك هو وطني الفريد

فاين في العالم ارض

يعيش فيها الناس احراراً ؟

من موسكو الى تخوم البلاد ،

يجوب الانسان

ذلك السيد الحقيقي لتلك الكنوز

هذه القارة غير المتناهية

الزاخرة بحياة لم يُعرف لها مثيل . »

من اجل هذا تغني الشعوب السوفيائية الشرقية جمال بلادها

على هذا الغرار الذي يغنيه شعب التركمان اذ يقول :

« ان ارضا قد ازهرت

وأصبح وطننا كالوردة

فهل للقوة ان تنمو بين ايدينا

ليصبح وطننا كالبلستان .

لن يعيش شعبنا بعد الان في السجون

لن يعاني ابدًا العذاب الذي عاناه في ليل الماضي

ان حكمة ستالين قد دلّتنا على الطريق

لما هزم الرعد في ثورة تشرين .

ان حلم العصور

قد اصبح حقيقة يا صديقنا ستالين

فمن وطن التركمان

نحن نحيك ، يا مفخرة العصور ! »

ان هذا الحلم الذي تمخضت به الانسانية في تاريخها الطويل ،

ان هذه القصة الحلوة عن عالم أحسن ، ان هذا الامل الكبير ، لم

يبق خيالا نطالعه في كتب الفارابي وتوماس مور وسان سيمون ،

بل اصبح حقيقة واقعة نلمسها في حياة ١٨٠ مليوناً من البشر

أظهروا للعالم كله قوة النظام الذي ناضلوا من اجله ، وخلقوه

بلحمهم ودمهم ، في آلام النصر وافراحه .

ان المواطنين السوفيات يحبون وطنهم لانه المنارة الهادية

والهداية المنيرة في غياهب الظلمات التي نشرتها النازية على الدنيا .

انهم يحبون هذا الوطن الفريد المتعدد القوميات لانهم ساهموا

كلهم في خلقها وبعثها كما ساهمت هي في بناء الوطن الكبير .
وهم يحبونه أخيراً لانهم لا يبغضون سواه ، ولان لينين وستالين
قد جعلاه منه معقلاً للحرية ، وجعلاه كل حركة من حركاته
درساً جديداً للعالم .

من هذه الوطنية السوفياتية ولدت البطولة الرائعة التي
ادهشت الدنيا . ومن هذا الحب المفرق للسلام ولدت ملاحم
الجيش الاحمر التي كانت كلمة المعجزة اقل ما توصف بها .
فالجيش الاحمر هو الشعب السوفياتي الذي انعتق من نير
العبودية ولن يخضع له مرة اخرى . هو الفلاح الذي يحارب
في حقله ، والعامل الذي يحارب في مصنعه ، والعالم الذي
يحارب في مختبره ، والمرأة التي تحارب في البيت والمصنع
والثكنة . هو فوروشيلوف وتيموشنكو ورودنتسيف ، وهو
ايضاً اهرنبورغ وتولستوي وشولوخوف . الجيش الاحمر هو
الرجل الذي يوجه خطى الاتحاد السوفياتي نحو الظفر ، الرجل
الذي فاقت رجولته كل رجولة ، وسمت حكمته على كل
حكمة ، وعلت قيادته على كل قيادة : الرفيق ستالين .

لقد حشد هتلر لمحاربة روسيا قواه كلها ، وحسب انه لم
يدع شيئاً دون ان يعد له العدة الوافية ، لكنه نسي امراً
واحداً : نسي ان وراء الجيش الاحمر نظاماً سوفياتياً . لقد
اخطأ هتلر في تقدير القوى المادية والروحية التي يتمتع بها
الاتحاد السوفياتي ، فكان حصاده ملايين الصلبان الحشوية التي
يرقد تحتها جنود لم يفتحوا من الارض السوفياتية الا المكان

الجدير بهم ، الا حفرأ يموتون فيها .

اراد هتلر ان يكون عام ١٩٤٢ عام انتصاره في روسيا
فشهد في هذا العام غروب آخر آماله في الانتصار . لقد
تخطمت القوى الالمانية المختارة على صخرة ستالينغراد الخالدة ،
فاذا بالجنرال فون دريبر يبكي في معتقله كالأطفال ، مردداً :
اي انكسار ، اي انكسار ! اما فون باولوس الذي عقد
هتلر عليه آماله الاخيرة ، فقد نال المارشالية في كهف مظلم من
كهوف ستالينغراد لاذ به بعد ان افنى جيوشه كلها ، وفي ذلك
الكهف المظلم نفسه ، استسلم قائد حملة ستالينغراد الى حماة
مدينة الفولاذ .

لما اعلنت المانيا الحداد بعد هزيمتها في ستالينغراد ، ضحكت
الدنيا بأسرها . ذلك لان وطن ستالين هو القلب النابض ،
والقوة الحاسمة ، في جبهة النضال ضد النازية والحرب والاستعمار ،
ولان الانتصارات السوفياتية لا تعود بالخير على الوطن
السوفياتي وحده بل على الدنيا بأسرها . ان احرار العالم
ليرون ويعرفون ان المصانع والمزارع والمعاهد السوفياتية ، وان
الجيش الاحمر وجميع القوى السوفياتية ، ليست للاتحاد
السوفياتي وحده بل هي للدنيا بأسرها ، هي لجميع الاحرار
والطامحين الى الحرية ، افراداً وشعوباً ، في مشرق الارض
ومغربها .

على أبواب أوربا

انتهت بانتهاء معركة تونس صفحة من صفحات هذه الحرب ،
وسيدأ التاريخ صفحة جديدة من نضال الشعوب ضد الطغيان
الاحتلالي ، فقريباً يقع سيف ديموقليس على الكتلة المحورية في
معقلها في اوربا ، وفي عقر دارها !

وقد كان انهزام قوات المحور في افريقيا الشمالية ، انهزاماً
للاستراتيجية المحورية بعد الهزائم الشنعاء التي حاقت بها امام جدران
ستالينغراد وعلى سفوح جبال القفقاس ، واثبت مرة اخرى ان
« الجيوش التي لا تُغلب » ليست قوية الا بضعف الدول التي
تحاربها ، وانها اذا لاقت مقاومة جدية حازمة لا تتخلى فقط
عن مشاريعها الهجومية بل تتقهقر ايضاً الى وراء .. وهذه جيوش
المحور التي هاجمت مصر ، لم ترتد عنها وحدها بل انسحبت من
جميع مراكزها في المستعمرات الايطالية ، ولم تفن وحدها بل
فني معها جميع اللصوص الفاشيست الذين جعلوا من البلاد العربية

هناك بؤرة لعبوديتهم ومسرحة لجرائمهم ، وبذلك كان انتصار الحلفاء مزدوجاً ، فقد ابعدوا الخطر الهتلري عن مصر والشرق العربي ، وانقذوا من محالب الطغمة الاستعمارية الايطالية شعوبا احبت الحرية ودافعت عنها اجمد دفاع ، وبذلت من اجلها دماء الالوف من ابناءها ، وعانت في سبيلها أروع ما يتعرض له ويعانيه مستعبد من صنوف الاضطهاد والارهاب .

كان الهدف الاول للاستراتيجية الالمانية من معركة افريقيا ، ان تجعل من جيوش رومل سداً بين الشرق والغرب ، يحول دون وصول القوات البريطانية والفرنسية والاميركية الى اوروبا . لكن الاستراتيجية الالمانية قد اخطأت في الحساب ، ولم تُقدّر ان حرب افريقيا ستكون حافزاً للحلفاء الى مضاعفة قواتهم ، وشحن نشاطهم ، وتوحيد صفوفهم ، للقضاء على المحور قضاء مبرما في تلك القارة .. فاذا « السد » يتحطم ، واذا القوات المتحالفة تتدفق في طريقها نحو الغرب .

لقد كانت معركة ستالينغراد نقطة تحول في تاريخ هذه الحرب . فبعد ستالينغراد بدا جلياً ان طريق النصر قد انشقت امام الحلفاء ، وان طريق الهزيمة قد انفتحت على مصراعيها امام الالمان وحلفائهم ، وقد بدا بعد ذاك ، ان هذه الحرب واحدة على أي جبهة كانت . فبعد هزائم المحور في ستالينغراد والقفقاس ، بدأت تظهر هزائم روميل في افريقيا تحت ضربات الجيش البريطاني الثامن في تشرين الاول ١٩٤٢ ، والجيوش البريطانية الاميركية التي نزلت في مراكش والجزائر في تشرين الثاني من تلك السنة .

وبعد الخسائر الجسيمة التي تكبدتها الجيوش المحورية في الجبهة
السوفياتية خلال معركة الشتاء ، بدأت هذه الجيوش تخسر آخر
حصونها في افريقيا ، ثم انتهت الى الهزيمة التامة .

ان انتصار الحلفاء في تونس وبيزرت ، يجعل لهم السيادة
على مضيق صقلية وهو المركز البحري الاساسي في المتوسط ،
وبذلك تتحرر احدى الطرق الاستراتيجية الهامة لدى الحلفاء ، وهي
الطريق البحرية بين جبل طارق وتويزة السويس . وسيادة الحلفاء
في البحر المتوسط وعلى جميع الشواطئ الافريقية ، تفتح امام
الحلفاء اقرب طريق الى ايطاليا ، وتضع بين ايديهم قواعد هامة
للهجوم على اوربا .

لقد قال الرفيق ستالين منذ ايام : « لاول مرة منذ بدء
الحرب نرى الضربات التي يوجهها الجيش الاحمر الى الجيوش
المحورية من الشرق ، متمزج بالضربات التي يوجهها اليها الحلفاء من
الغرب » . فهذا الخطر الذي كان يتحاشاه الهتريون ويخافونه ،
قد تحقق الآن ، او هو على وشك ان يتحقق ، بفضل تعاظم
قوى الكتلة الديموقراطية وتوثق وحدتها . وليس عبثاً ردد
العالم حين ذاع نبأ سقوط تونس وبيزرت : لقد انتهت
معركة افريقيا وبدأت معركة اوربا .

اجل ، لقد انتهت معركة وستبدأ غداً معركة اخرى .
فافريقيا « اصبحت للامان مقبرة وللحلفاء محطة » ، وهي محطة
قصيرة لن يطول امد الوثوب منها الى اوربا ، الى النصر .
ونحن اعداء النازية والفاشية في هذا البلد ، نرى من

واجبنا ان نحبي الجنود الفرنسيين والبريطانيين والاميركيين
الذين ساهموا في تطهير افريقيا من الوجود النازي والفاشي .
نحن المناضلين من اجل الحرية والديموقراطية ، نحبي جميع
الجنود الذين ساهموا في انقاذ شمالي افريقيا من العبودية
والديكتاتورية ، من تلك الطغمة الفاشستية التي كانت لا
تفتأ تتبجح بأنها ستفتح العالم ، وتعلو فوق النور ، وتجعل من
البحر المتوسط بركة ايطالية !

نحن السوريين واللبنانيين ابنا هذا الشاطئ الجميل الذي
طالما تحلب من اجل خيراته لعاب الفاشيست الايطاليين ، نرسل
تحية شكر وتقدير الى جميع الجنود الذين ساهموا في تحرير
اخواننا العرب في شمالي افريقيا ، من افطع استعمار عرفه
التاريخ . واننا لنغبط ونبتهج اذ نذكر ان بين اولئك الجنود
البواسل ، عدداً كبيراً من السوريين واللبنانيين الذين بذلوا
دماءهم في افريقيا من اجل حرية سوريا ولبنان ، لانهم يؤمنون
بان الفاشستية هي رأس الافعى الاستعمارية التي ليس لنا مع
بقائها امل في الحياة ، ولنا بزواها آمال الحياة كلها ، ويعرفون
ان قضية الحرية في العالم قد اصبحت قضية واحدة .

قوة الشعوب

في ذلك اليوم من حزيران سنة ١٩٤١، اصطدم في البلاد الروسية
ألمان : عالم الهدم وعالم البناء . في ذلك اليوم هاجم هتلر
الاتحاد السوفياتي بجيش متفوق بالعدد والعدة ، خارج من
معارك ظافرة تمرس فيها بالقتال وسكر بخمرة النصر . فكان
ذلك اليوم الفاصل في تاريخ هذه الحرب ، يوماً خطيراً في تاريخ
الانسانية ، وقفت فيه على مفترق رهيب ، فأما ان تزل بها القدم
الى هوة العبودية ، وأما ان تواصل سيرها الصاعد نحو الحرية
والنور .

وتطلع العالم يومذاك الى الاتحاد السوفياتي ، وتعلقت قلوب
الاحرار في مشرق الارض ومغربها بخطوات الجيش الاحمر ،
وعقدنا نحن السوريين واللبنانيين والعرب في جميع ديارهم ، آمالنا
في الحياة العزيزة والحرية القومية بل رغبنا في البقاء ، على
نتيجة هذه المعركة التي شنها الهتلريون للقضاء على شعب مسالم

محب للشعوب الاخرى ، والحصول في ارضه على موارد جديدة
ومراكز استراتيجية هامة تضمن لهم مواصلة الحرب حتى تسود
النازية الدنيا .

وتوغلت جحافل الطغيان في الاراضي السوفياتية وزحفت
نحو موسكو ... لكن موسكو كان على رأسها رجل فولاذي كلما
تحدث مشى التاريخ خطوة جديدة الى الامام ، وقد ارتفع
صوت هذا الرجل ، يومذاك ، حاملاً في نبراته وتوجاته ارادة
الشعوب التي لا تغلب ، منادياً : « ايها الرفاق ! ان العالم لينظر
اليكم . ويراكم قوة قادرة على ابادة الالمان . وان شعوب
اوربا الراححة تحت نير الغزاة ، لتتجه انظارها اليكم وتعتبركم
محريها .. ان مهمة تحريرية عظيمة تناط بكم فكونوا بها جديرين ! » .
وحينئذ شهد الناس عجباً ، فبعد ان استفاق الاتحاد
السوفياتي من دهشة المفاجأة والغدر ، وبعد ان تعلم الحرب
رجال السلم ، تكشف الحرب السوفياتية عن وطنية تقاوم
الحديد والنار ، وتنسف الدبابة بزجاجة ، وتبذل الدم السخي
دفاعاً عن كل شبر من الارض ، وتصد الغزاة عن قلب
روسيا وعروس الفولغا ومدينة لينين ، وتقهّر جيوشاً قهرت
اوربا ، واستولت على مواردها ، واحتكرت صناعتها ، وجندت
ابنائها ، وقذفت بذلك كله على البلاد السوفياتية ، فلم تفتح منها
الا المكان الجدير بها ، الا قبوراً تدفن فيها .

وقد تساءل العالم عن سر هذه الوطنية الرائعة ، فوجده في تاريخ
الاتحاد السوفياتي الذي اوجد في ربع قرن عالماً جديداً له نظام

اجتماعي خاص هو النظام السوفيائي ، وسلطة شعبية حقيقية هي سلطة السوفيات . ففي ذلك العالم الفريد ، المتعدد القوميات ، القائم على اساس متين من الحرية والمساواة ، امتزجت حرية كل فرد بمصلحة الوطن كله ، وتعانق مصير كل شعب بمصير الشعوب كلها . فاصبح كل فرد يعرف معرفة اليقين بانه ، في الحرب الوطنية التي يساهم فيها ، انما يدافع عن حريته الخاصة ، وعن حقه الخاص ، في الفرح والسعادة . وغدا كل شعب يؤمن ايماناً تاماً بانه ، في الحرب المقدسة التي يخوضها لسلامة الوطن ، انما يدافع عن حريته واستقلاله وكرامته . ومن ثم تجلت في الحرب السوفياتية تلك الوطنية التي لم يُعرف لها مثل ، لان اسبابها لم تتوافر في وطن آخر ، والتي اجتمع فيها حب الشعوب السوفياتية لبلادها ولنظامها ولخيراتها ، الى جانب احترامها لحقوق الشعوب جميعاً وحرية الناس جميعاً .

كان الاتحاد السوفيائي يدافع عن هدف نبيل يمثل آمال الانسانية كلها ، وكانت المانيا النازية وحلفاؤها يقاتلون من اجل مطامع استعمارية حقيرة ، من اجل السيطرة على الشعوب واستعبادها ونهب خيراتها . كان هتار ينادي بحق القوة ، ويتبجح بافضلية الجنس الآري ، ويريد السيادة على اقدار الناس . وكان ستالين يقول : « ان الجيش الاحمر لا يحمل ، ولا يستطيع ان يحمل ، حقداً عنصرياً على الشعوب الاخرى ، بما فيها الشعب الالمانى نفسه ، لانه نشأ على فكرة المساواة في الحقوق بين جميع الشعوب وجميع الاجناس ، ولانه يحترم حقه كما يحترم حقوق

الآخرين » . فليس عجيبيّاً اذن ان تلتف الشعوب الشغوفة بالحرية حول الاتحاد السوفياتي ، وان تتألب هذه الشعوب على الطاغية الذي يهدد المدنية باكبر خطر تعرضت له ، وان يقول الرئيس روزفلت في حديث له عن وطن ستالين : « ان المعونة التي تقدمها الولايات المتحدة له ، ليست ظاهرة من مظاهر العطف الانساني بل وسيلة من وسائل الدفاع عن اميركا » ، وليس عجيبيّاً ان يقول مثل هذا القول كل وطني مخلص في أي بلد كان ، فان حرب روسيا ضد الغزاة الالمان ، هي حرب اميركا وانكلترا وفرنسا ايضاً ، هي حرب جميع الامم والقيم ، وهي حربنا نحن الشعوب التي تطمح الى السير في موكب الامم المتحدة على اساس المساواة في الحقوق .

ومن حسن حظ الانسانية ان الاتحاد السوفياتي ، كان في هذه الكارثة ، كما كنا نعرفه ونقول عنه : معقل الحرية الذي يدل وجه الحرب وخلق فيها انعطافاً كبيراً ، واعطى الامم المتحدة الوقت الكافي لحشد قواها وتعبئة مواردها ، وما فتئ ينزل بالجيش المحورية الضربة تلو الضربة حتى زعزع قوتها ، وصدّع وحدتها ، وجعلها في وضع محرج انتقلت فيه بعد الهجوم الى الدفاع .

في ٢٢ حزيران سنة ١٩٤١ كان هتلر يحلم بسحق الجيش الاحمر تحت ضربات مفاجئة صاعقة ، فشهد فلور جيوشه المصفحة ترتد عن موسكو تحت ضربات الجيش الاحمر . وفي ٢٢ حزيران ١٩٤٢ عاوده ذلك الحلم المظلم ، فما لبث حتى انقلب الحلم كابوساً مزعجاً شهد فيه فناء عشرات من فرقته المختارة في معركة

ستالينغراد الخالدة ومعارك الشتاء الكبرى . فما عساه يحلم في هذا اليوم من هذه السنة ، وقد ضربت الامم المتحدة حصارها الفولاذي على القارة الاوربية التي حسب انه حوّلها الى جبانة واسعة ، وهو يشهد اليوم عودة الحياة الثائرة اليها كما يشهد القاتل انتشار ضحاياه من قبورها .

لقد ذهبت الاحلام وتبددت الاساطير ، ولم يبق امام الطاغية سوى الامر الواقع الذي ينتظر فيه ان يتلقى ضربات الحلفاء من كل جانب . وانه لانتظار رهيب يقلق الفوهرر ويخيف اتباعه ، لكنه يبهج الدنيا بأسرها ، لانه يعيد اليها الامل بالحرية وبالتقدم وبالكرامة الانسانية .

وغداً ، عندما يُكتب التاريخ ، سيقول المؤرخون ان الاتحاد السوفياتي قد انقذ العالم ، وابقى للانسان امله بتلك المقدسات . سيقول المؤرخون : ان الحرب العادلة تخلق الابطال والحرب الظالمة تخلق الوحوش ، وان المواطنين السوفياتيين الذين خاضوا حرب الانسانية التقدمية ، قد ضربوا في البطولة مثلاً اعلى اقام الدليل الصادع على ان شعباً يعرف معنى الحرية ، ويناضل من اجلها بجميع قواه ، لا يستطيع الظلم ان يقهره مهما اوتي الظلم من قوة وأعطى من أساليب الارهاب .

ان قوة الشعوب لا تُغلب ، تلك هي العبرة الكبرى التي تخرج بها الشعوب ، ونخرج بها نحن ، من الدروس الكثيرة التي تلقيناها الحرب الالمانية السوفياتية : حرب الوحش والانسان .

رَسُولُ السَّلَامِ

الحرب تفكك بالانسانية وتلتهم ميراثها العريق ، والحضارة تتعقر بالوحل والدم ، والعالم فريسة القلق واليأس ، ومع ذلك فكلما دنا موعد هذه الذكرى التاريخية ، ذكرى تأسيس الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية ، تسري في الدنيا موجة من امل وثقة وايمان . لان في ذلك القطر العظيم يتقرر مصير الانسانية والحضارة والعالم جميعاً ، ولان النبتة التي عُرسَتْ فيه ما لبثت ان اصبحت دوحة ، فذكرى نشوئه هي ذكرى انتصاره ، والعالم احوج ما يكون الآن الى ما يعزز فيه الامل بالنصر العادل ، وها هو يوم ٧ تشرين الثاني من هذا العام قد سجل انتصاراً جديداً هو تحرير كييف ، عاصمة اوكرانيا وملعب طفولة اهرنبورغ ، فلم يكن هذا النبأ بشري يخص بها الاتحاد السوفياتي ، بل كان نسمة من الخير هبت على الدنيا .

سنة وعشرون عاماً من التطور الدائب ، ذلك هو تاريخ الاتحاد

السوفياتي . وليست الاعوام الستة والعشرون بالمرحلة التي تذكر في حياة الشعوب ، لكن هذا القطر قد سار فيها بخطى الجبارة فحقق من الانتصارات ما كان ينبغي له عصور من العمل الجاهد ، فازدهرت المواهب والكفايات التي دفنها الاضطهاد في اعماق مائة وخمسين شعباً ، وتمتعت هذه الشعوب بنعمة الحرية وفرح الحياة . واذا كان الوطنيون الصادقون والاحرار في كل بلد يحبونه ويعجبون به ، فليس فقط لانه وطن ينشد السلم لنفسه ويريد الحرية لشعوبه ، بل لانه ينشد السلم والحرية لجميع الشعوب .

كان اول اعمال الدولة السوفياتية انها الغت الغبن والامتياز الناشئين عن سبب قومي او ديني ، وقد حرص ستالين ، وهو ابن الشعب الجيورجي الذي عانى الوان الاستعباد القيصري ، على تحقيق المساواة التامة بين جميع القوميات والشعوب السوفياتية ، ثم بادرت الدولة السوفياتية الى تطبيق هذا المبدأ على الشعوب المجاورة لها ، فمنحت فنلندا استقلالها ، واعترفت بامم البلطيق دولا ذات سيادة تامة ، وتنازلت عما كان للدولة القيصرية في الصين وتركيا وافغانستان وايران وبولونيا ورومانيا من امتيازات استعمارية ، وقدمت لهذه الاقطار التي كان اسم روسيا وحده مبعث خوف لديها ، مساعدات فعالة كان لها اثر كبير في تقدمها وتطورها .

وطبيعي ان الاتحاد السوفياتي ، فضلاً عن الاساس المبدئي الذي يحده الى انتهاج هذه السياسة الحمودة ، كان ينظر ايضاً

الى مصلحته الخاصة التي تقضي بتوطيد السلام في البلاد المجاورة له ، وتحريرها من كل نفوذ او مطمع لمستعمر ، كما ان من مصلحته العليا ان يسود السلام والحرية في جميع الشعوب ، لانه كلما توافرت للشعوب حرياتها وساد السلام بينها ، استطاع الاتحاد السوفياتي ان يأمن جانب العدوان الخارجي وان يعكف على بناء كيانه وينصرف الى متابعة تطوره .

ولذلك كان الاتحاد السوفياتي دائماً مصدر قوة وثقة وایمان لجميع الاحرار والمناضلين الوطنيين في العالم :

لما وطئت قدما الزنجي الاميركي بول روبسون المغني الاميركي الشهير ، ارض الاتحاد السوفياتي ، قال : « اشعر بانني هنا اكثر تمتعاً بالحرية من بلادي ، فقد سقط من طريقي في الحياة حتى حاجز لوني الاسود » . ولما كان ديمتروف في قبضة الغستابو كتب له مجاهد من برلين : « ان حياتنا لشاقة لكن لا تزال موسكو على الارض » . ولما احتل اليابانيون منشوريا دعا احد كتابها مواطنيه الى متابعة المقاومة قائلاً لهم : « ان الى جانبنا شعوباً سوفياتية تؤيد حقنا في الحياة الحرة » . ولما احدثت الفاشستية بالجمهورية الاسبانية تبنت روسيا الوف الاطفال الاسبان الذين استشهد اباؤهم في النضال . ولما ضحى مؤتمر مونيخ بتشيكوسلوفاكيا ردد الشعب التشيكوسلوفاكي : « ان السوفيات وحدهم قد اخلصوا لنا » . واليوم ، ترتفع من جميع اوربا اصوات تنادي : « عجل ايها الجندي الاحمر ، فان تأخير يوم ، يزيد عذاب ملايين الاشخاص الذين يفكرون بك

في عناد ، وغصة ، وامل .. عجل ايها المحارب ، ولا تنس انك جندى احمر ! »

ولا ريب في ان المواطن السوفياتي يسوده شعور بالغبطة ، عندما يستعرض اليوم سياسة حكومته خلال ستة وعشرين عاماً ، فيرى انها كانت تستهدف السلم دائماً ، وتحرص على توطيد العدالة بين الشعوب ، وتؤلف مصدر قوة وايمان لجميع احرار العالم . على ان هذه الغبطة لا تقتصر على المواطن السوفياتي ، فأى رجل شريف في الدنيا لا يبتهج لوجود دولة قوية كالاتحاد السوفياتي ، تجعل اهدافها نشر السلم والدفاع عن حقوق الشعوب ، لان طبيعة نظامها الاقتصادي ومبادئها الفكرية ومصالحها الخاصة ، تختلف عن طبيعة الانظمة والمبادئ والمصالح السائدة في الدول التي تكون الحرب لديها ويكون الاعتداء والارهاب ، ضرورات لا بد منها لبقاء انظمتها ودوام سيطرتها على الآخرين ! واي رجل شريف في الدنيا لا يسره ان سياسة السلام التي يعتنقها الاتحاد السوفياتي ، هي سياسة حازمة صريحة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ، ولا تشبه في شيء السياسة السلمية المائعة المرائية التي تخفي من المطامع ما يناقض ما تبديه . أي رجل شريف في الدنيا لا يبتهج اذ يرى سلام العالم تقبض عليه ايد مخلصة قوية ؟!

لقد اضطر الاتحاد السوفياتي ان يدافع عن السلام بالسلاح ، منذ دوى صوت لينين عبر الحدود والحدائق ، داعياً الى هذه الامة الخالدة . واليوم ايضاً ، بعد ست وعشرين سنة ، يدافع

الجيش الاحمر عن السلام بالسلاح ، باقوى سلاح . لكن لشد ما تبدلت الامور خلال هذه الست والعشرين سنة ! ففي عام ١٩١٧ كانت روسيا وحدها ، وكانت اكثر الدول متكررة لها متألبة عليها . في ذلك العهد ، كان النظام السوفياتي ، في نظر بعض الدول ، مرادفاً لكل ما هو شائن وقبيح ، بل ان اكثر الدول التي تسمي الان الدولة السوفياتية حليفها الكبرى ، وتعتقد عليها آمالها في الحياة ، لم تكن لتعترف بها او تنظر اليها كدولة مساوية لها في الحقوق : حقاً ان الحجر الذي رفضه البناؤون قد اصبح حجر الزاوية !

ان ثمة معنى عميقاً في التطور الذي شهدناه خلال الربع الاخير من هذا القرن ، والذي جعل من دولة السوفيات المنبوذة ، رغم كيد الدسائس وبغي الخصوم ، ارسخ دعامة للمدنية ، واقوى مدافع عن التراث الانساني ، وامل اوربا بالتحرر من النير الهتلري بل امل العالم الوحيد في نشر السلام والحرية ! فلقد مزقت الاحداث المختلفة التي تعاقبت خلال هذه المرحلة ، كثيراً من الاقنعة والحجب التي كانت تخفي حقائق الاشياء . فبعد مؤتمر مونيخ ، وهدنة فرنسا ، وخيانة كثير من الاشخاص الذين كانوا يزعمون قبل الحرب انهم الوطنيون الوحيدون والذين اسفروا خلال الحرب عن وجوههم فظهروا على حقيقتهم : عبيد المنفعة الشخصية والطغمة الرجعية وسلاحاً يُسد الى قلب وطنهم في اخرج الظروف - بعد هذا وغيره من الاحداث ، عرفت الشعوب من هم اعداؤها ومن هم اصدقاؤها ، فاحاطت الاعداء

بالحد والاحتقار ، وتطلعت الى الاتحاد السوفياتي بحب واعجاب
لأنها عرفت فيه رسولا للسلام الصحيح ، وصديقاً للشعوب
الضعيفة ، ونصيراً لكل طالب حق .

اجل ، لقد تبدلت اشياء كثيرة خلال الستة والعشرين
عاماً الاخيرة ، بل لقد تبدلت الاشياء كلها ، لكن شيئاً واحداً
لم يتبدل : هو سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية القائمة على
احلال التعاون محل التنازع في العلاقات الدولية ، واعطاء
الشعوب حقها في تقرير مصيرها . وان اقتناع الوطنيين غير
السوفياتيين بهذه الحقيقة نفسها ، هو احد الاسباب الرئيسية
التي جمعت حول الاتحاد السوفياتي جميع الشعوب الطامحة الى
حقوقها وحرّياتها ، لانه الرمز العملي لتلك الحقوق والحرّيات ،
والقوة الراجحة التي تمهد من هذه المطالب ما كان عصياً منذ
سنين ، ولانه الدولة الوحيدة التي حققت رخاءها الاقتصادي
وازدهارها الاجتماعي وتطورها الفكري دون ان تلجأ الى
الحروب الاستعمارية ، ودون ان تغزو الاسواق الخارجية ،
ودون ان تغرق وطنها في طوفان من القروض ، بل بلغت
ذلك كله باتحاد مائة وخمسين شعباً تضامنت وتعاونت في استخراج
كنوز الارض ، وزيادة القوى المنتجة ، ورفع مستوى الحياة .
وان شعوب كازاكستان واوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان
وعشرات الشعوب الاخرى ، قد ضربت مثلاً رائعاً على ان
الشعوب الصغيرة ليست كما يزعم فريق من الرجعيين ، بحاجة
الى الاستعماريين والمبشرين والجلادين والصهيونيين لكي تصبح

شعوبا راقية متحضرة . فالشعوب المنعتقة من القيود ، مهما كانت صغيرة وضعيفة ومتأخرة ، تستطيع ان تبلغ في فترة وجيزة قمة الرقي واولج الحضارة ، كما بلغت شعوب روسيا بعد ان انعتقت من قيودها .

وفي هذه الايام التي تتجاوب فيها صرخات العذاب من اقصى العالم الى اقصاه ، في هذه الايام التي تعاني فيها الاستعباد شعوبٌ كانت من ارقى شعوب العالم ومن اثبتها استقلا - في هذه الايام العصيبة من تاريخ الانسانية ، يقف الاتحاد السوفياتي كلنارة الهادية في العاصفة الباغية ، تبشر العرقى بالخلص وترشداهم الى شاطئ السلامة . فأي انسان جدير بهذا الاسم ، أي وطني يريد حرية بلاده ، وأي عربي حريص على مصلحة امته ، لا يحمد القدر على ان تطور التاريخ قد تمخض في اليوم السابع من تشرين الثاني سنة ١٩١٧ بدولة جبارة ، مسالمة لكنها قوية ، لا تعتدي على غيرها لكنها تصد الاعتداء عنها ، وقد سوبقت فسبقت وغولبت فغلبت وارادت اعداؤها خاسرين . دولة عادلة ليس امثل منها سياسة ومذهباً ، وقد اصبح مجرد وجودها رجاء يرفع عاثر الآمال ، ورمزاً طالعا للحرية والاستقلال ، وبرهاناً بوجه الشك على ان قضايا الشعوب وقضيتنا نحن العرب سائرة نحو الظفر المنشود .

فالى الرجل الذي يرقد في ساحة موسكو ، والى رفيقه في الفكر والسلاح ، الى القائدين الكبارين اللذين انشأ هذه الدولة من عدم ، واضرما فيها شعلة الحياة ، لا ترتفع فقط ، في هذا

اليوم العظيم ، تحيات مائة وثمانين مليوناً من البشر يعيشون
على سدس الكرة الأرضية احراراً مدافعين عن الحرية ، بل
تصعد ايضاً تحيات واماني جميع الوطنيين الصادقين الطامحين الى
الحرية والمناضلين من اجلها في العالم .

٧ تشرين الثاني سنة ١٩٤٣



المعلم الأُمِّي

لي في الحي الذي أقطنه جار يضحكني أمره (١) .. هو معلم يزعم ان رابطة الفكر تجمعني واياه على صعيد واحد ، وازعم انني لا يجمعني واياه سوى هذا الحي الذي نكبنى بجيوتيه كما نكب سكانه جميعاً بمشهد من الجرذان لا يكاد الليل يسبغ ظله ، حتى تنطلق من مخابئها ، فتصول وتجول ، وتكر وتفر ، حتى لا تدع زاوية الا دخلتها وعاثت فيها ، كأنها مكلفة واجباً تأبى الا ان تؤديه على وجهه الاكمل .

وقد كان صاحبي وفيّاً بحق تلك الرابطة ، التي لا ادري كيف اكتشف وجودها بيني وبينه ، فكان حفيّاً بي حريصاً على معاشرتي ، يبحث عني كل صباح فلا يعدم سائحة يلتقيني

١٥ اذيع هذا الحديث من محطة راديو الشرق ، لمناسبة الحملة التي قام بها احرار البلاد العربية احتجاجاً على انتشار عملاء المهترية في لبنان من قبورهم .

بها في الطريق او في حانوت الحلاق او لدى بائع اللبن ، فيُعرب
عن اخلاصه لي واهتمامه بشأني ، ثم يستحلفني بحق الفكر، هذه
الرابطة المقدسة التي تجمع بيننا ، ان اقوم من سيرتي الادبية ،
وان اصحح آرائي في الفلسفة والاجتماع والسياسة على غرار
آرائه هو ، هو الذي خبر الحياة فعرف خيرها وشرها وخلص
منها بعقيدة معادية للشعب ، ومعادية للديموقراطية والحرية ، ومعادية
للكيان اللبناني والفكرة العربية جميعاً . ولا ادري كيف كان
يتسع قلب صديقي الذي يحيش بجميع هذه العداوات ، لصداقتي
انا ، انا الذي اناضل من اجل تلك المقدسات بكل جراحة في نفسي .

وكثيراً ما كنت احاول مناقشة هذا الصديق الغريب ،
في آرائه السياسية والاجتماعية ، فكنت لا اظفر منه الا بابتسامة
مشفقة هي ابتسامة المعلم لتلميذ ساذج ، حتى ايقنت بان مثل
هذا الرجل الذي تحجرت عقائده لا ينفع في مناقشته برهان او
منطق ، فرحت اداعبه كلما التقيته بنكته تفجّر كامن غضبه ،
حتى انقلبت صداقتنا الى خصومة ، وانقسم سكان الحي بين
مؤيد لي ومؤيد له . لكن الاحداث السريعة المتعاقبة ، كانت لا
تفتأ تثبت للناس ضلاله ، فتفرّهم منه وتبعدهم عنه ، حتى اصبح في
الحي فريقاً وحده . ثم زادت في تنكر الناس له ومقتهم اياه
امور بدرت منه في عهد فيشي المظلم ، فكشفت عن اتصاله ،
اتصالاً لا يُشرّف صاحبه ، باعداء لبنان واعداء حلفائه . ومنذ
ذلك الحين انتشرت رائحة الدعاية الهتلرية في فمه صريحة ، وقحة ،
فكانه كان يتكلم بفم غوبلز نفسه .

لقد كان من الطبيعي ان ينتهي الى خدمة الفاشستية ، رجل
يبحث في نفسه مثل هذا الحقد على الحرية والديموقراطية ، ومثل
هذا العدا ل لشعبه ووطنه . لكن من الغريب ان يتهاى امرؤ ،
كما كان يتهاى هو ، في ضلاله وعناده ، حتى امام البرهان القاطع .
فقد كانت الانباء توافينا بهزائم الفاشستية المتتالية ، فيؤكد ان
هذه الانباء كاذبة وإن أذاعتها برلين نفسها . ولما اباد السوفييات
الفرق المتتارية المختارة امام ستالينغراذ ، وطرد الحلفاء آخر فلول
الفاشستية من تونس ، انقلب المعلم المدرسي الى خبير عسكري
يقيم البرهان على ان هاتين الكارثتين هما انتصاران كبيران
للألمان . وهكذا استسلم المارشال فون باولوس ، واستسلم المارشال
فون ارنيم ، وصاحبنا لم يستسلم .

وعقب ذلك هزائم متواصلة منيت بها الجيوش المحورية في
الاتحاد السوفياتي ، ودخل الحلفاء دخول الظافرين الى صقلية
والى ايطاليا نفسها ، وانهار النظام الفاشستي انهياراً مريعاً امام
اول صدمة لاقاها ، ولاذ موسوليني بالمانيا خوفاً من غضب
الشعب الايطالي .. وصاحبنا يستقبل هذه الاحداث بابتسامة
صفراء تشفق على عقولنا التي لا تدرك ان وراء هذه الهزائم
كلها ، خطة بصيرة مدبورة ، فكأن المسكين قد وقع في شرك
دعايته نفسها !

واخيراً هاجم الحلفاء فرنسا واستطاعوا النزول الى القارة ،
فهل تحسب ان معلنا قد اقتنع بدنو الساعة التي يتمزق بها
الجيش المتتاري وتنهار النازية ، كما انهار قبلها كل نظام اقام

بنيانه علي الجريمة ؟ كلا ، لقد لبث ينتظر المعجزة ... وذات صباح ، طاف صاحبنا منازل الحي داراً فداراً ، ينبثنا جميعاً ، والابتسامة الصفراء تضيء قسماً وجهه ، ان المعجزة قد وقعت ، فلما نيا قد انزلت الى ساحة القتال سلاحاً سرياً خطيراً لن يبقـي ولن يذر ، هو الطائرات الآلية او القنابل الطائرة ...

حقاً لقد ضحكت كثيراً... ان هذا المعلم الامي ، يستبشر بهذه الآلات العمياء ، كأنه لم يعرف ان هتلر لم يحارب منذ اللحظة الاولى ، الا بالآلات عمياء مشابهة لها . وهل كان هدف النظام النازي منذ وجد ، الا ان يخلق شعباً من العبيد الطائعين والآلات المسيّرة لتكون وقوداً لآلته الحربية ؟!

يقول هتلر ان الاستبداد هو ينبوع الحكم ودعامته ، وان الانسان ضعيف وجبان بالفطرة ، وليس من رسالته هو ان يصلح الانسان ، ويقضي على رذائله ، بل ان يستغل هذه الرذائل . ويصيح غورنغ : « اقتلوا اقتلوا ، اقتلوا دون تفكير ، وعليّ انا تقع تبعة جريمتكم ، فاقتلوا اذن » ! ويعود هتلر فيقول ، وكأنهما يتحاوران في مسرح : « سأنقذ البشرية من هذه السخافات التي يسمونها انسانية ورحمة وكرامة و مروءة ، فانا اتمتع بمزية واحدة ، هي انني لست اسير هذه الاعتبارات الخلقية » ! على هذه « المبادئ » كان الهتلريون يتربون منذ عشر سنوات ونيف ، يتربون على الخضوع والطاعة ، حتى خلدت نفوسهم من جميع العناصر التي تؤلف شخصية الانسان ،

واصبحوا عبيداً مسيرين ، حتى خطرات قلوبهم ليست لهم ،
فهم يحاسبون عليها حساباً عسيراً ، واللسان الذي يجري بكلمة
لم يتلقها مقضي عليه بان يُقطع .

فالنازية حزب لا تلتقي قلوب انصاره الا على غرض
واحد ، هو الطاعة . وفي هذا الحزب كان هتلر يعمل على قتل
انسانية الانسان ، واطلاق احط غرائزه الحيوانية ، وجعله مخلوقاً
مسيراً يستجيز الجريمة ولا يعترف بقانون اخلاقي . وقد كان
على الالماني ان يألف هذا الجو المسموم ، فيعطل فيه ملكاته ،
ويخنق مواهبه ، ويقتل شخصيته ، حتى يصبح نازياً : أي
حيواناً يسير على قدمين ، أي آلة عمياء مسيرة .

فلا يستبشر صاحبنا بهذه الآلات الجليدة التي قذف بها هتلر
الى الميدان اذ ادركه اليأس ، فان جميع الجنود الهتلريين
آلات عمياء . وهو نفسه ليس سوى آلة مسيرة من آلات
الفوهرر ، هو قبلة من قنابله ولكنها مملوءة سخافة وجهلا ..

اما نحن الذين كان اعظم ما نخشاه على العالم وعلى
الحضارة ، هو هذه الروح الآلية التي تسيطر على اتباعها
وجنودها ودعاتها ، فقد ازلت الحرب مخاوفنا بتجاربها الساطعة
التي اثبتت اكثر من اي وقت آخر ، ان الانسان اقوى من
الآلة ، حين رد الانسان السوفيائي قطعان البربرية الفاشستية
قائلاً لها : لن تستطيعي وقف دولاب التاريخ ، فالتاريخ
يعمل لنا .

لكني لا استطيع اذ استعرض سيرة هذا الرجل الآلي ،

الا ان اقف مستغرباً امام الظاهرة المستنكرة التي يؤلفها
النفر الذين يمثلهم وان كان عددهم لا يتجاوز عدد الاصابع :
انهم يأكلون الغذاء الذي تنبتة تربة وطنهم الطيبة ثم يهاجمون
هذا الوطن وشعبه ، يهاجمونها من كل سبيل ، لانهم باعوا
انفسهم كما تباع الخرق العتيقة .

... ترى متى يُطهر حيّنا من الجرذات ومن اشباه
الآدميين ؟ !

٢٠ حزيران سنة ١٩٤٤



منطق التاريخ

لا اذكر أي كاتب غربي قال في الايام الاولى العvisية من هذه الحرب : « ان النكبات لتتعاقب بحيث لا نعرف اليوم عن سنبكي غداً » ! ان هذه الكلمة المؤثرة لتطفر الآن من غيابة الذاكرة ، اذ تتوالى الانتصارات حتى لا نكاد نعرف اليوم أي بشرى يحملها الينا الغد .

لا ادري أكان فينا ، نحن الوطنيين العرب ، من بلغ المه هذا الحد ، لكنني واثق من انه كان ينبغي للانسان الإنسان ان يكون له خلق عظيم واعصاب خارقة ، لكي يحتفظ بابتسامته أمام الاحداث التي كانت تروّع ضمير العالم . . ولم تكن تلك الابتسامة الشاحبة في الاغلب ، الا تقديراً متواضعاً لقوافل الشهداء الذين كانوا يتساقطون في ساحة النضال من اجل الحرية ، اولئك الابطال الذين لم يُتَح لنا ان نكون الى جانبهم ، فكنا نبسم اعجاباً بهم ، بل حياء منهم .

واليوم ، وقد تبدل وجه التاريخ ، فجاء دورنا في الضحك ،
تأبى تلك الابتسامة الشاحبة ان تفارق شفاهنا . يقولون ان
من يضحك أخيراً يضحك كثيراً . أجل ، ولكن المناضل
الذي لم يستسلم للبكاء لان التخاذل ليس من طبعه ، يأبى ان
يستسلم للضحك لان الشهادة ليست من شيمه . . كيف به
أذن وفي الافق ظلمات لما تنقشع ولا تزال ثمة عقبات دون
الانتصار الاخير .

لكن هذه العقبات مهما عظمت مشقاتها ، لا تستطيع ان
تنسينا ان الوضع قد تبدل ، او انقلب ، او انه عاد الى ما
يجب ان يكون عليه . حقاً ان معركة ستالينغراد قد تركت
في التاريخ اثرأ لا يمكن ان تتركه معركة اخرى . . فهل هذه
الانتصارات المتتابعة الانزور من ثمار تلك الدوحة التي روّاها
الدم الشريف فأخرجت شطأها وآتت أكلها . لقد تتابعت
الانتصارات منذ خريف سنة ١٩٤٢ حتى سقطت روما بين
أيدي الحلفاء ، كما تسقط بين أيدي البستاني ثمرة حان قطافها .
ثم كان من هاتيك الثمار ، ثمار الدوحة التي بسقت على ضفاف
القولغا ، هذه الجبهة الجديدة القديمة في الغرب (١) ، التي يسمونها
الجبهة الثانية وهي الجبهة الاولى التي شهدت اولى شرارات
الحرب . وبهذا الانتصار - لان نزول الحلفاء على الشواطئ
الفرنسية هو بحد ذاته انتصار كبير - دخلت الحرب في مرحلتها

«١» اذيع هذا الحديث من راديو الشرق ، لمناسبة افتتاح الجبهة
الثانية في الغرب .

الحاسمة ، وهي بلا ريب أصعب مراحلها ، لان العدو ، الذي
تزداد كبريائه كلما ازدادت جرائه ، سيدافع فيها عن نفسه
بكبرياء مجرم ادركه اليأس .

لقد كان العدو يبذل جهوده كلها لتأخير هذه المرحلة
الحاسمة والاستعداد لها . فمُنذ معركة ستالينغراد ، اذ عرف
انه اوشك على النهاية ، وهو جادّ في تحصين الابواب المفضية
الى بلاده .. لكن هذه الحصون لم تكن قادرة على صد
هجوم جدي ، فلم يلبث الجيش الاحمر ان اقتحمها من الشرق ،
ثم اقتحمها جيوش الحلفاء من الغرب ، فوجدت المانيا نفسها
في الموقف الذي كانت تخشاه ، والذي كانت تحاول عبثاً ان
تتجنبه ، بالتهويل في تصوير قوتها ومناعة حصونها ، وبالقاء بذور
التفرقة بين صفوف الحلفاء .

وفي هذه المرحلة الحاسمة ، ارتدت الحرب طابعاً جديداً .
فينما كانت المانيا تزحف على اوربا فتسيطر عليها ، ثم تحشد كل
ما في هذه القارة من وسائل الدمار ، وتقذف بها البلاد السوفياتية
الآمنة ، اذا بالجيش السوفياتي يضع اقدامه على الحدود
الالمانية ، ويزحف نحو برلين التي ظلت طوال سنوات تُرعد
وتزجر مثل بركان يتقيأ الموت .

ان حدود المانيا التي استطالت وتمددت حتي شملت بضعة
عشر قطراً ، اصبحت تتقاصر الان ، وتتقلص شيئاً فشيئاً ، امام
هذا الجيش الظافر الذي تركزت في قلبه كل الشجاعة التي في
العالم ، والذي انعقدت عليه آمال الانسانية كلها .. وان وقع

أقدامه ليتجاوب في انحاء القارة المنكوبة ، كأنه نداء الحرية ،
فتتحرك لسماعه الشعوب الراضحة تحت النير ، وتتحفز لاسترداد
اعلامها الاسيرة ..

خمس سنوات تقضت على العدوان النازي ، وكأنها خمسة
اجيال طويلة ، تغير خلالها وجه الانسان ووجه الارض : انطبع
الاول بالالم واتسم الثاني بالحراب ! ولكن الشقاء الذي يأخذ
كثيراً ، يعطي كثيراً ايضاً . وقد اعطت تجارب الحرب ونكباته
العالم روحاً جديدة ، هي هذه الروح الانسانية التي ربطت
الاحرار في مشرق الارض ومغربها بروابط وثيق ، والتي تحملهم
اليوم على جناحيها الى عاصمة العبودية ، الى برلين .. لقد
حرّكت هذه الروح الانسانية قوى الحرية ودفعتها الى امام ،
وليس من يدري اين يستقر مطافها ..

لقد كانت تجارب الحرب ، على قسوتها ، درساً يعلم من
جهل ونوراً يهدي من ضل .. افلم تعلمنا معنى الوطنية ، وتزيد
تعلقنا بالحرية ، وتوقظ من آمالنا ما-رقد؟ وها هي ترينا رأي
العين ، كيف يرتد سهم الظالم الى نحره ، وكيف تدول دولة
الطغيان . لكن اعظم ما تلقينه علينا هذه التجارب من عبر ،
هو ان القوة بحاجة الى حق يدعمها لكي تعيش ، كما
ان الحق بحاجة الى قوة تحميه . فالمانيا النازية كانت تملك
اقوى الة حربية وأقوى جيش مدرب ، ولكنها كانت تسخر
قواها لاغتصاب حقوق الشعوب الاخرى ، فلم تلبث هذه القوى
ان انهارت امام ايمان الشعوب السوفياتية بحقها ودفاعها عن هذا

الحق دفاع المستميت . وقد رأينا الالمان يبلغون ضواحي
العاصمة السوفياتية ثم يرتدون عنها خاسرين ، ورأيناهم يتوغلون
في البلاد السوفياتية فيلقون في كل شهر من الارض دفاعاً
جباراً ، وبطولة فريدة ، ووحدة عظيمة بين الشعب السوفياتي
والجيش السوفياتي والقواد السوفيات ، لانهم يدافعون جميعاً عن
هدف وطني واحد يؤمنون به جميعاً ويقدمونه جميعاً ، ولأن هذا الهدف
لا يتنافى مع مصلحة الانسانية ، ولا يتعارض مع تطور التاريخ .
ثم ما كادت الحرب تنتقل الى اوربا وتشارف الحدود الالمانية ،
حتى رأينا القادة الالمان يتخبط بعضهم في دماء بعض ، والبلاد
الالمانية تصبح مسرحاً لاضطرابات داخلية بين لصوص تساهموا
ارتكاب الجريمة وهم يحاولون اليوم ان يهربوا من العقاب .

كان المهترئون يحاربون من اجل المدى الحيوي وهم يحاربون
اليوم دفاعاً عن انفسهم ، ولا اقول دفاعاً عن وطنهم ، فليس
للمهترئين وطن لانه ليس لهم من الشرف ما يحملهم على محبة
وطنهم والدفاع عنه . ان الحرب الوطنية بحاجة الى ضمير حي
وقد قتلت النازية ضمائر اتباعها . لم نسمع احدهم يقول : ان
ضميري يدعى ادولف هتلر ! وقد طبعهم هتلر هذا بطابعه حتى
اصبح كل واحد منهم فوهراً صغيراً . لقد قال لهم : انكم
ستسودون العالم ! ولم يقل لهم : انكم ستدافعون عن وطنكم !
لقد اثار طمعهم بخيرات الشعوب الاخرى ولم يوجههم الى الانتفاع
بخيرات بلادهم . وعندما يقاتل المرء لكي يسرق ، قد يقول :
كفى ! اذا امتلأت جعبته او انتهكت قواه . ولكنه عندما

يحارب من اجل وطنه يمضي الى النهاية . فالظلم يجعل من المظلوم بطلاً ، ولكن الجريمة مهما أمدت صاحبها بالكبرياء ، فانها لا بد من ان تدفعه الى التخاذل عندما يشهد سيف العدالة مشهراً في وجهه كما يشهده اليوم الجندي الالماني عندما يرى الجيوش السوفياتية الزاحفة الى بلاده .

لما دخل الالمان اراضي الاتحاد السوفياتي بدأوا يتعلمون اللغة الروسية في كراسات اول ما تلقنوه فيها امثال هذه الجمل التي يحتاجون اليها : « اين مؤونتك ؟ احفر قبرك ! تعالي ننام معاً ... » واليوم يتعلم الجنود الحمر اللغة الالمانية في كراسات تحتوي قوائم مفصلة لأهم الجمل التي تفيدهم عند دخولهم المانيا وفي مقدمتها هذه الكلمات : « ارفع يديك ! اذكر الحقيقة ! اين معسكر الاعتقال ! » .

ذلك هو منطق التاريخ !

يقول ايليا اهونبورغ في مقال حديث له : « يمكن ان يصفح الانسان عن انسان مثله لكنه لا يصفح عن وحش . وهو يستطيع ان يغفر عما حل به لكنه لا يستطيع ان يغفر عما حل بالآخرين . في ماريوبول قاد الالمان في ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٤١ الوفاً من الناس الى العذاب وامروهم ان يخلعوا ثيابهم ويقفوا امام الجلاد ، فلم تفهم الصغيرة فاليا ما يُراد بها ، وصاحت فرحة : اماء سنغتسل ! فمن ذا الذي يجزأ ان يغفر للالمان باسم فاليا ؟ » ويقول هذا الكاتب الروسي : « نحن لا نريد الانتقام ، ولن نعامل الالمان بالمثل . لن ندمر المراصد ودور العلم ، ولن نحرق

متحف غوته وغيره من المفكرين ، ولن نحشو افواه الاطفال
بالسم .. لكننا نريد ان نخلص العالم من القتل . سنذهب الى
بلادهم لكي لا يعودوا الى بلادنا مرة اخرى .. ونحن واثقون
من اننا لن ننقذ بذلك اطفالنا فقط وبلادنا فحسب ، بل سننقذ
الانسانية كلها وننقذ مُثلها العليا وآمالها بمستقبل سعيد »

... ذلك هو صوت العدالة !

٢ آب سنة ١٩٤٤



انتصار باريس

منذ اسبوع وباريس ، هذه الكلمة الحلوة ، تتردد على كل شفة ويخفق لها كل قلب . وكذلك كان شأن باريس في جميع الازمان .. ففي كل حين لها انتصار يلفت انظار العالم ، وقد كان انتصارها الاخير اعظم انتصاراتها شأنًا ، لانه حررها من اعظم نكبة حلت بها ، من اعظم نكبة تحمل بالشعوب !

وقد كان نبأ تحرير باريس مفاجئًا كنبأ احتلالها . وكان لكل من النبأين صدى بعيد في العالم : اطلق احتلالها قوى الشر فيه ، وقطع تحريرها السنة السوء .. ذلك أن باريس كانت ، منذ ثورتها الكبرى ، قلب المدينة الاوربية ، وطلیعة قوى الحرية في القارة العجوز ، ورمز النضال من اجل حقوق الانسان ، فكل ما يعرض لها من خير او شر يترك اثره البعيد في كل مكان . وليس القول بان باريس لازمة للعالم ، لازمة للانسانية ، لازمة للحضارة ، مجرد كلمات تُطلق جزافاً ولا تنطوي على

معنى عميق .

ولباريس اخت كبرى في النضال ، هي موسكو عاصمة
الشجاعة ، عاصمة البطولة الفريدة والوطنية المثلى ، البعيدة عنها جغرافياً
ولكن القريبة منها قرب الشقيق الى الشقيق . لما كان الالمان على
ابواب العاصمة السوفياتية ، قال ديغول : « ان فرنسا الراححة في
الالم هي مع روسيا التي تتألم ، ان فرنسا المناضلة هي مع
روسيا التي تناضل ، ان فرنسا الغارقة في اليأس هي مع روسيا
التي عرفت ان تصعد من ظلمات الهاوية الى شمس العظمة ! » ولما
انتصرت موسكو وردّت عنها الوحوش النازية ، قال اهرنبورغ :
« ان انتصارنا لا ينسينا ما تعانیه الشعوب الاخرى من آلام ،
لا ينسينا ما تعانیه باريس ، فيا اخواننا في البلاد الخاضعة للنير ،
تشجعوا وصابروا فالتصر الكامل قريب ! »

وكانت باريس تتطلع دائماً الى هذه الاخت الكبرى ، واثقة
من ان مصير الحرية في العالم انما يتقرر على ضفاف الدون
والفولغا ، فكانت تردد بابتهاج صدى المدافع التي تحمي بها موسكو
انتصارات جيشها الاحمر ، لانها تعرف ان كل انتصار يحزره
هذا الجيش يقربها شوطاً جديداً من يوم خلاصها ... وكانت
تستعد خلال ذلك لهذا اليوم الكبير !

فانتصار باريس لم يكن انتصاراً مرتجلاً ، بل كان انقلاباً
هياته في الحفاء ، مرحلة طويلة من النضال ، وجمهرة مختارة من
قادة الشعب نظمت حركة المقاومة ودربت جماهير غفيرة على
القتال . فلما كان الظرف المناسب ، نهض شعب باريس بأسره

الى المعركة ، وتحول كل شيء في باريس الى سلاح بيد هذا الشعب الثائر . ولما دخلت جيوش الحلفاء العاصمة الفرنسية ، وجدت فيها شعباً ظافراً لا شعباً خائفاً مغلوباً .

ان اعظم ما في انتصار باريس ، ان عمالها المناضلين ومفكرها الاحرار هم الذين حرروها بايديهم ومعاولهم ، فطهروا بذلك عاصمة النور من العار الذي وصمها به نقر من الخونة ، وفي هذا درس جديد تلقيه هذه المدينة على العالم . في ١٣ حزيران سنة ١٩٤٠ استخذي قادة جيش من اكبر جيوش العالم ، فاعلنوا العاصمة الفرنسية مدينة مفتوحة ، فدخلها الالمان في اليوم التالي على اهون سبب . وفي ١٩ آب سنة ١٩٤٤ ، بعد اربع سنوات من الجوع والعذاب والوان الاضطهاد ، يعلن شعب باريس الاعزل ، المنهوك القوى ، الحرب على الجيش الالماني وانصاره من الخونة المنحطين ، فلا تمضي اربعة او خمسة ايام من القتال العنيف ، حتى ينسحب الالمان من المدينة ويرتفع علم الثورة الفرنسية مكان العلم النازي على قوس النصر ..

لقد حسب الخونة انهم يستطيعون قهر الشعب الفرنسي واقامة سلطتهم على ضحاياه ، فاذا هذا الشعب يقوِّض في فيشي ثم في باريس نفسها ، هذه السلطة التي لم تكن لها سوى دعامة واحدة هي الجريمة . ولم يكن الخونة الذين اغرقوا بالدم ارض الوطن الفرنسي ، ولا اقول وطنهم لان فرنسا هي وطن عمالها وجنودها ومفكرها الذين يحررونها وليست وطن الطبقة التي تبيعها وتشتريها — لم يكن اولئك الخونة ليعتقدوا بان هذا الشعب الذي يحتقرونه

ويخافونه في آن واحد ، سيعرف كيف يجاوب على الحيانة
والجرمة بالوطنية والبطولة .. واذا العالم كله يسمع اخيراً هذا
الجواب البليغ ، جواب القوة التي يدعمها الحق ، قوة الشعب
الثورية الكبرى التي سيكون لها اثر كبير في تطور الحياة
الدولية ...

ليست السنوات الاربع بالعهد الطويل في حياة الشعوب ،
ولكن هذه السنوات التي تقضت على الشعب الفرنسي وهو
رازح تحت نير العبودية ، اذا لم تكن عهداً طويلاً في حياته
فهو عهد فاصل في تاريخه ، عهد حفر في قلبه الى الابد صورة
الوطنية وصورة الحيانة ، وجوه الوطنيين ووجوه الخائنين ،
فعرف من هم اصدقاؤه ومن هم اعداؤه ، وعلى اساس راسخ
من هذه المعرفة سيبنى غداً مستقبله الحر السعيد .. لقد اراد
اعدائه الخارجيون والداخليون ، المتحدون في المنفعة والجرمة ،
ان يحولوا مجديدهم ونارهم ، مهد الثورات والحريات ، الى جحيم
من العذاب والهول ، فجعلوا من باريس مقبرة كبيرة يسودها
الصمت الرهيب ، لكن اعجزهم ان يجعلوا من شعب باريس ،
الشعب العامل المفكر ، جثة هامدة .. ففي اعماق تلك المقبرة
الكبيرة ، خلف الجدران الصماء ، وداخل الاقنية المظلمة الباردة ،
كانت الحياة تزخر ، وتجيش ، وتتحفز للوثوب ... وذات يوم ،
هو اليوم التاسع عشر من شهر آب سنة ١٩٤٤ ، تدفقت تلك
الحياة وطمت وانتصرت على الموت ...

تلك هي روح الكومون ، كومونة باريس ، التي حسب

اسلاف لافال وبيتان انهم قتلوها في سنة ١٨٧١ ، اذ فتحو
ابواب العاصمة الفرنسية المحاصرة امام الجيش الالماني ، فاعمل معهم
سيفه في رقاب عشرات الالوف من الجماهير الشعبية الثائرة ..
والتي اراد لافال وبيتان وزملاؤهما ان يجهزوا عليها سنة ١٩٤٠ ،
فمثلوا دور اسلافهم خير تمثيل .. ولكن روح الكومون لم
تمت ، لانها خالدة لا تموت !

وعندما نذكر هذا الكفاح السري الرهيب ، لا بد من ان
ننحني امام ذكرى شهدائه الميامين ، اولئك المناضلين الذين
كانوا يعملون بعناد وصمت ، ويموتون لكي تحيا باريس ، اولئك
الذين فضلوا ان يموتوا واقفين على ان يعيشوا راكعين ! اني
لأفكر دائماً بهؤلاء الابطال وامثالهم ، الذين اثاروا اهتمامي
اكثر من اي جماعة اخرى في هذه الحرب ، والذين علموني ،
مع الجنود الحمر والانصار الثائرين المناضلين في كل مكان ، معنى
التضحية من اجل الوطن .. ومعنى العناد في سبيل حرية الوطن !
اولئك الابطال الذين احبوا وطنهم اكثر من اي شيء آخر ،
والذين كان يحفزهم حبهم العميق للحرية ، الى النضال من اجل
جميع الشعوب وجميع المضطهدين ، لانهم من اعرف الناس بان
الحرية وحدة لا تتجزأ . اولئك الابطال ، الشهداء والاحياء ،
الذين من اجلهم احب باريس !

اني لاذكر منهم على الاخص غابرييل بييري ، صديق
العرب ، والمحامي اللبناني انطوان الحاج ، ورفاقهما الذين ماتوا
لكي يهيئوا لاحفادهم اياماً تضحك وتغني . وان ذكرهم لواجبة

في ايام النصر ، لانها تذكرنا بان دماءهم لم تذهب هدرًا .
لقد ضربوا بانفسهم مثلاً لغيرهم ، فعرفوا كيف يجدون الخلود
في الموت . فالآن ، عندما تتردد اغاني الظفر في شوارع
باريس ، تتردد فيها اسماء غابرييل بيوري ورفاقه ، كأنها رايات
حمراء ، رايات الحرية الظافرة .

باريس ، هذه المفخرة الكبرى من مفاخر الديمقراطية ،
تصبح اليوم والى الابد ، قلعة من قلاع الحرية في العالم .
ان باريس هي قلب فرنسا ، وفرنسا في نظرنا نحن الوطنيين
السوريين واللبنانيين ، ليست اسماً مجرداً ، ليست جماعة فيشي
وانصارهم واتباعهم والمتشبهين بهم ، ليست هذه الطغمة التي
حاربت شعبنا وحاربت قضيته الوطنية ، والتي خانت شعبها
وحاربت حريته واستقلاله ، بل هي الشعب الفرنسي الكادح ،
هي عماله المناضلون ومفكروه الاحرار ، هي النائب الشيوعي
غابرييل بيوري ورفاقه الذين قاوموا هذه الطغمة الى جانبنا ،
دفاعاً عن شعبهم ودفاعاً عن شعبنا ، لانهم يعرفون ان خصومنا
هم خصوم لهم ايضاً ، ولانهم يؤمنون بان الشعب الحر لا
يستعبد شعباً آخر ...

ان فرنسا التي نحبها ونتحدث عنها هي وطن مارا وروبسيير
وسانت جوست ، هي وطن بيوري وبيير سيمار . هي فرنسا
الديموقراطية حقاً ، التي اعطت الارض للفلاحين ، واعلنت
حقوق الانسان ، وحاربت في سبيل الحرية زمناً طويلاً ،
والتي ستعالج في المستقبل بروح ثورية منصفة ، مشاكلها الكبرى

وعلاقتها مع الشعوب . فالجماهير الفرنسية انما تناضل اليوم من اجل فرنسا الغد التي لن تكون كفرنسا الامس ، من اجل فرنسا الجديدة التي تنبثق بين انقراض العالم الرجعي القديم ، من اجل فرنسا التي تريد ان تعيش حرة في عالم حر وسعيدة في عالم سعيد . ان تحرير باريس الذي نحياه ونبتج له ، ليس معناه ، ولا يمكن ان يكون معناه ، انتقاصاً من حقوق وطنية انتزعناها بنضالنا ، ولا رجوعاً الى عهود قديمة حاربناها وظهرنا عليها ، بل هو خطوة الى امام في سبيل النصر على الهتلرية ، وفي سبيل حرية فرنسا ، وحریتنا نحن ، وحرية كل شعب شغوف بالحرية . فالذين احبوا ان يفهموا تحرير باريس على غير هذه الصورة قد اخطأوا كل الخطأ ، وباريس المحررة ستقنعهم بذلك في وقت اقرب مما يتصورون .

ان الجيش الذي حرر باريس ، هو جيش من نوع جديد ، قوامه العمال واحرار المثقفين ، جيش ليس على رأسه خونة من امثال بيتان ودنتز واستيفا وغيرهم من الرجعيين والمستعمرين ، ولكن فيه فرق باسم سان جوست وكومونة باريس وغابريل ييري . ولهذا يرى احرار العالم في انتصار باريس ، اول خطوة عملية جريئة يخطوها الشعب الفرنسي لانشاء فرنسا جديدة ، يصنعها خيرة ابنائها ، ولا يكون فيها مكان للطغاة والمستثمرين . فالوطنيون الذين عانوا الاستعمار النازي وقاوموه ، والذين قاسوا اضطهاد الغستابو وناضلوه ، والذين انقضوا على القلاع الهتلرية باجسادهم ، واضطروا بمعاولهم الدبابات الالمانية على التراجع -

لئن يدعوا الشركات الاحتكارية تسليهم ثمة انتصارهم ، وسيكونوا ،
في صراع الحرية والعبودية ، حرباً على كل استعمار واضطهاد .
لذلك يثير انتصار باريس أمل الشعوب ، جميع الشعوب ،
التي لا تزال تعاني ما عاناه شعب باريس ، والتي تريد ان تتحرر
كما تحرر احفاد الكومون . ويا له من درس عظيم القته باريس على
الدنيا ، اذ أرتهأ أي قوة تؤلفها الجماهير الشعبية ، اذا ارادت
وظلت راسخة في ارادتها ، وناضلت وكانت متحدة في عقيدتها ،
مؤمنة بعدالة قضيتها ، مستعدة للتضحية في سبيل النصر .

٢ ايلول سنة ١٩٤٤



الزحف إلى برلين

بعد خمس سنوات من محاولة التحكم في مصير العالم ، يخرج
مصير المانيا الهتلرية من ايدي ابنائها ، فتسمع زئير المدافع في بلادها ،
وتذوق طعم العذاب الذي طالما اذاقته غيرها ، وتجنّي حصاد
انتصاراتها الاولى هزيمة شنعاء .. بعد خمس سنوات من التدجيل
والتضليل والكبرياء ، يتحدث غوبلز الذي طالما أباد في خطبه
الجيش الاحمر وقضى على مقاومة الشعوب ، فيقول بصوت
دامع : « ان طريقنا قد افضت بنا الى وهدة الحزن ، فلم
يبق لنا سوى الدفاع عن انفسنا من الخطر المحدق بنا » ..
بعد خمس سنوات من الحرب الصاعقة ينقلب الزحف الهتلري
على العالم ، فاذا العالم يزحف الى المانيا والى برلين ..

الى برلين ... هذا هو اليوم شعار الاحرار في العالم ،
يردده الجنود والانصار والجبهة والمؤخرة ، تردده الثاكلات
والارامل ويردده الاطفال الذين ولدوا ليفرحوا فعاشوا تحت

سوط العذاب ، ترده القارة الاوربية التي اجتاحتها اعصار
النازية والاتقاض التي كانت معاهد وحادث في بلاد السوفيات ،
يرده بحارة طولون من قبرهم الرحب وترده ملايين الضحايا
التي يجهل اهلها ايان ترقد ! الى برلين ، تنادي لديشة المدينة
التي زالت من الوجود . الى برلين ، تنادي باريس وفرصوفا
ولينغراد التي عانت وانتصرت . الى برلين ، ينادي الجنود
الذين يموتون شجعانا وهم في الطريق الى برلين ، والجنود الذين
يواصلون الزحف اليها !

الى برلين ، وصمة العار في جبين القرن العشرين ، الى العاصمة
الالمانية التي لم يعرف التاريخ دولة كدولتها في موتها حياة
للاخرين .. ان طريقها حمراء ضرّجها الدم البريء وغطتها
جثث لا عداد لها .. هي طريق متشعبة تتصل بكل بلد اجتاحه
الجنود النازيون . ففي كل بلد ترك النازي شاهداً على همجيته ،
وارتكب اثماً يستحق شديد العقاب . وقد تنقضي اعوام طويلة
على هاتيك البقاع ، لا يحرث الفلاح فيها ارضه الا وتطالعه
من بطن الارض جماجم الضحايا تستصرخ العدالة وتستعديها على
الباغي الاثيم . ان هذه الطرق المتشعبة تقضي كلها الى برلين ،
وهي تزحف كلها الى وكر الوحش ، وتزحف عليها الوف
المدن وعشرات الالوف من القرى التي عاث فيها النازي والتي
عادت اليوم الى الحياة فهبت تقتص من زبانية الموت .. ولن
يهدأ بال النسوة اللواتي اعتصمن في شعاب الجبال ، ولن تقرّ
عيون الاطفال الذين شردتهم الحراب ، ولن يتعزى الرجال

عما لاقوا من احوال ، ولن يسكن الشبان المناضلون الى
احضان السلام ، الا اذا عرف الجميع انهم قد دفنوا مع انقاض
بيوتهم وجث ضحاياهم ، عصر الهمجية وعصر الاستعباد !

•
هناك اناس لم يعرفوا حتى الآن ما هي الحرب ، هذه
الحرب . لم يعرفوا حتى الآن ان مصيرهم ومصير اطفالهم ،
أياً كانوا واينما كانوا ، لا يزال متوقفاً على النتيجة التي تنتهي
اليها الحرب الحاضرة بين قوى الحرية وقوى الاستعباد . ولعل
فيهم من يهمة ان تطول الحرب مهما كلف الثمن ، او من
يتمنى لو تنتهي كيفما انتهت . منذ ايام اخذ عليّ محام معروف
اني وصفت النازيين بالوحوش ، واني اؤيد فكرة محاكمة
المسؤولين عن الحرب ومعاقبة مسببيها وجرميها ، وراح - في
ايلول سنة ١٩٤٤ - يتحدث عن المدى الحيوي .. محاولاً
تبرير جريمة البعض بجرائم الآخرين ، ناسياً انه من امة طامحة
الى الحرية اذا اعترفت « بحق » الدولة القوية بافتراض الامة
الضعيفة ، كان معنى ذلك انها تسلم عنقها لسكين الجزار ، جاهلاً
ان اعفاء المسؤولين والجرمين وخائني اوطانهم من العقاب هو
تشجيع للمستعمرين على ان يركبوا الشعوب بصنوف العدوان
والارهاب ، وتشجيع للمجرمين على ان يفتكوا بالضعفاء
ويمثلوا بالابرياء ، وتشجيع لخائني اوطانهم على ان يبيعوا شعوبهم
لكل طامع مقابل دراهم معدودات !

نريد ان نقول مرة اخرى ان النازي ، وكل من يشابهه ،

ليس بانسان . وان الوحش يجب ان يعامل كوحش ، وان
الحقد هو العاطفة الوحيدة التي يثيرها في النفس .. ان احرار
العالم حاقدون على اعداء الانسانية واعداء الحرية واعداء التقدم ،
وهم يفخرون بهذا الحقد .. واذا كان هناك من يفكر بمساومة
النازيين وامكان اصلاحهم ، باعتبارهم اناساً كالاخرين ، فان احرار
الشعوب لن يساموا الوحوش ولن يهادنوها لانهم لا يستلمون
بان قتلة الاطفال تعمر صدورهم عواطف بشرية . ومن اجل
هذا نرى الجيوش السوفياتية لا تكتفي بطرد الجنود الالمان بل تحرص
على قتلهم .. لقد ارادوها حرب ابادة فكان لهم ما يشتهون !
ان الشعوب التي تحب السلام تعرف ان من واجبها ان
تكون شديدة في الحرب . وليس يعني النصر عند هذه الشعوب
الخلاص من الكارثة كيفما كان وجه الخلاص ، بل يعني استئصال
جذور الكارثة حتى لا تنبت من جديد ، كما نبتت في سنة
١٩٣٩ لانها لم تستأصل في سنة ١٩١٩ .. ان مهزلة الصلح
الماضي لن تتجدد ، ولن ترضى الشعوب ان تذهب هذراً وجزافاً
عشرون مليون حياة انسانية ازهقت في هذه الحرب ، وان
تضيع الآلام التي عاناها عشرات الملايين من الناس في مختلف
بقاع العالم . ومن ثم تعدى الهدف المنشود في هذه الحرب ،
حد تحرير البلاد التي خضعت للنير ، واتجهت امال الشعوب الى
القضاء التام على قوى الاستبداد ، وجعل هذه الحرب عبرة
لمقبل الاجيال . ان برلين هي الهدف الذي تستهدفه الشعوب
في نضالها من اجل الحرية والسلام ، فيجب ان تعاني العاصمة

الامانية مثل ما عانتها باريس واثينا ولينينغراد ، ويجب ان
تتحطم الدولة القائمة فيها كما تعرف الدول التي تسول لها
مطامعها ان تسير سيرتها وتجوّر جورها وتعتدي مثل عدوانها ،
ان الشعوب قد اصبحت من اليقظة والوعي والقوة بحيث لن
تغفر لمجرم جرمه ، وان اقل ما ينتظرها هو المصير الذي صار
اليه طغاة برلين . ويجب ان يعاقب خائنو اوطانهم في البلدان
المحتلة ، اولئك الذين لم يتحرّجوا من ان يمدوا يد التعاون الى
العدو الذخيل ، يجب ان يعاقبوا عقاباً شديداً لا رحمة فيه ،
لكي يعرف امثالهم من الخونة اي مصير ينتظر خائني شعوبهم
واعداً وطنهم ...

هذه هي ارادة الانسانية التي تريد ان تعيش في سلام .
هذه هي ارادة الاحرار الذين يريدون القضاء على الطغيان .
ان الدم الذي جرى من سهول فرنسا الى حقول اوكرانيا
لا يزال حاراً ، وهو يستصرخ جنود الحرية ان لا يضعوا
سيوفهم في اغمارها حتى تتحطم عروش الاستبداد . وهؤلاء
الجنود البواسل قد سمعوا الصرخة الحارة ، صرخة الدم . وهم
يتحرّقون شوقاً الى اباداة قتلة الاطفال ، وسيتعقبون هذه
الوحوش الى وكرها في برلين . ولن تنطفئ ابداً هذه النار
التي تضطرم في صدورهم حقداً على الطغيان والاستعباد . انها
لن تنطفئ ابداً هذه النار المقدسة ، بل ستلهب الاجيال الصاعدة
حقداً على كل طغيان وكل استعباد .

حَرْبُ الشُّعُوبِ

في هذه الحرب ، تجلت حقيقة صارخة - والحقائق اشياء عنيدة
كما يقول ستالين - وهي ان الشعوب قد اذحت فيها ، بعد وعيها
الاجتماعي ونضجها السياسي ، العنصر الرئيسي والقوة الراجعة .

كانت الحرب تنتهي من قبل ، بمعركة عسكرية فاصلة ، يسيطر
بعدها الجيش المنتصر على الدولة المنكسرة . اما الان فقد اصبح
على الفاتح ان يجابه ، بعد انتصاره العسكري ، معركة داخلية
أروع هولا وأقوى أثراً ، هي المعركة الشعبية المجيدة التي
اعتدنا ان نسميها : المقاومة .

وقد ساهمت في خلق هذه المقاومة عوامل كثيرة ، منها
طبيعة الحرب الحديثة التي تتصل بال الجماهير مباشرة فتجند ملايين
الرجال منها ، وتعبىء ملايين اخرى للعمل من أجل الجبهة ،
وتُعَرِّض المدنيين انفسهم لخطر الغارات الجوية ، وتهبط بمستوى
الحياة المادية والادبية لدى افراد الامة جميعاً . ومنها وحشية الاستعمار

المتلري التي لم يُعرف لها مثل في التاريخ ، والتي تقوم ، فضلاً
عن اساليبها الاجرامية في البطش والذهب ، على نظرية عنصرية
تحتقر الشعب المغلوب وتبرر للفتاح استعباده والتمثيل به . ومنها
ايضاً المستوى الذي بلغته الشعوب الاوربية من النضج السياسي
والوعي الاجتماعي ، والذي عرفت فيه ان معركة الوطن هي
معركة الشعب الذي يؤلفه ، وعلى هذا الشعب ان يذود عنه
عندما يسلمه الحائنون ويتخلى عنه الجبناء المترددون والساسة
المحترفون . ومنها أخيراً ، وقد يكون أولاً ، المثل العظيم الذي
ضربه الشعب السوفياتي اذ دافع كل فرد من ابنائه ، عن كل
شبر من اراضيه ، دفاع الابطال الميامين .

وليس صحيحاً ان أثر هذه المقاومة الداخلية التي تقوم بها
الجماهير ، مقصور على تأخير اعمال العدو وتعجيل انتصار كان
من الممكن احرازه بدونها ، فضلاً عن ان تقديم عمل عسكري
او تأخيرهِ ، لا يعني تغيير الوقت المقدّر له فحسب ، بل
يؤدي الى تغيير مفعوله ونتيجته نفسها . فهذه المقاومة التي رفضت
بأباء ان تقبل عار الهزيمة ، وان تكتفي بالنحيب على قبر
الوطن .. ان هذه المقاومة التي تمرت عندما استجاب لارادة
العدو الجبناء المستسلمون والحوثة التعاونيون ، والتي ناضلت في
عصف الاضطهاد والجور موجة الاستخذاء وعاصفة الهلع ، هي
التي اعادت الى الامة ثقها بنفسها والى الوطن شرفه المضيع .
تحت نير الارهاب وسوط العذاب ، بدأت الجماهير الشعبية
التي أذهلتها الكارثة حيناً من الزمن ، تستعيد وعيها وايمانها

بانتصار الحرية . ولكي تتحرك هذه الجماهير وتنظم في النضال الدامي الى النهاية ، كان يجب ان يكون لهذه الحرب هدف جدير بأن يزيل تردداتها ويثير حماسها ، فكان الهدف الطبيعي الذي نصبته المقاومة امام جماهير الشعب : بناء عالم ديمقراطي صحيح لا يكون لها في ظله مقام الاجير ، بل تحكم فيه نفسها بنفسها وتعيّن مصيرها بملء حريتها واختيارها . اذ لم يكن من المستطاع احياء أمل الجماهير بالمستقبل ، وتجنيدتها للنضال من اجله ، اذا عرفت ان دمائها ستراق من اجل النظام القديم ، نظام الرجعية والعبودية ، الذي يجرمها حقها في الحياة ويسوقها الى ساحات الحروب حيث تُهدر ارواحها في سبيل مطامع المستعمرين والمستثمرين .

كان النضال في سبيل الوطن ، لا يعني لدى تلك الشعوب المضطّدة ، تحريره من نير الغزاة وحسب ، بل تحريره من نظام المطامع والدسائس الذي قاده للوقوع تحت هذا النير ، نظام الأخطاء التي ما زالت ترتكب بأصرار منذ سنة ١٩١٩ لكي تؤدي الى كارثة سنة ١٩٣٩ — لان هذا الوطن اذا ظل كما كان ، فسيظل دائماً عرضة للنكبات التي اصبحت من مستزمات نظامه القديم . وحتى الشعوب المحاربة خارج القارة الدامية ، التي لم تعان احوال الاستعمار النازي لكنها عانت سوط الحرب الموجه الموقظ ، لن ترضى بالعودة الى ذلك النظام الفاسد دون ان تحاول تهديمه او اصلاحه على الاقل ، وهذا مؤتمر العمال البريطاني يقول : اننا لا نتوخى هزيمة المانيا ودحر

اليابان ، لكي نعيد الى بريطانيا صورتها التقليدية ، ولكي نعيد الطريق امام الرأسمالية الاحتكارية التي تقوم على مبادئ الفاشستية لا على مبادئ الديمقراطية .

لقد اعتزمت الشعوب ان تحرر اوطانها كلها ، اراضيها وقوانينها . انها تريد ان تستعيد اوطانها لكي تجدها ، لكي تعيد بناءها على اسس ديمقراطية صحيحة . بهذه الروح بدأت حركة المقاومة تتسع في كل بلد عاثت فيه نعال النازي ، وتزخر ، وتجيش كالمرجل . وفي احتدام معركة الحرية ، بينا الوف المناضلين وعشرات الالوف منهم ، يموتون كل يوم ارباب الميئات ولكن اشرفها ، كان اخوانهم في السلاح ، المهمدون في كل لحظة بالمصير نفسه ، يتابعون نضالهم العظيم .

في ذلك الليل المطبق على تلك الاوطان السجينة ، كان اولئك الابطال ، اولئك الشهداء والمستشهدون ، رمزاً حياً ودليلاً صارخاً على ان ثمة اوطان جديدة كانت تلد تحت الارض ، كانت تفكر وتناضل ، في الحرمان والعذاب ، بحياة خالقة ، ببطولة لا مثيل لها ، كالاضطهاد الذي تجابهه ، لا يمكن وصفها والاحاطة بها . وهكذا اصبحت المقاومة ، هذه المنظمة الشعبية والحالة الفكرية في آن واحد ، الطليعة العاملة والمفكرة التي بها يبدأ المستقبل ، والتي منها تنشق الوثبة الواعية الرامية الى اتحاد جميع القوى السليمة في سبيل انشاء ديمقراطية جديدة ، ديمقراطية ثورية . ان نوراً ساطعاً كان ينبجس في ذلك الليل البهيم ، ان مولوداً عظيماً كانت تتمخض به تلك الحركة الولود .

فهيئة الجماهير للمقاومة ، واشراك ملايين الناس في النضال من اجل التحرر الوطني ، كانت تعني انماء الوعي السياسي في الشعب كله .. كانت تقضي ان يتطور في المصانع والمزارع ، وفي المكاتب والمدارس ، وفي كل حي وكل بيت ، وعي المواطن ، وتعلقه بالحرية ، وكفاحه من اجلها .. كانت تتطلب تثقيف هذا المواطن بروح الكفاح وتدريبه على اساليبه العملية .. بحيث شعرت الملايين انه قد انبثقت فيها وحوّلها ارادة ثورية ترمي الى بناء وطنها وبناء العالم كله ، على اسس جديدة هي اسس الحق والعدالة والمساواة . ولم يكن ممكناً في الواقع ، ان يشترك ملايين من الناس في شعور واحد ، وان تجتمع قلوبهم على نضال واحد ، ثم تبقى الارادة التي تصدر عنهم ، ارادة عتيقة لا تمثل سوى ذلك الماضي الزائل ، ولا يمتد منها لهيب ثوري جديد . ان هذه الملايين التي اتحدت ستبقى متحدة ، ليس في معركة النضال من اجل تحرير الوطن وخسب ، بل في هذه الارادة الفولاذية التي تبغي صنعه من جديد .

تلك حقيقة واقعة ، غنيمة ، لا يمكن انكارها او تجاهلها .. ولا ريب ان هناك من يقول الان : الا تباً للحقائق الواقعة !

اجل ان هناك من تسوء هذه الحقيقة ، فيحاول انكارها ، ويريد من الجماهير التي تمثلها ان تتخلى فجأة عن المهمة التي اخذت على نفسها تحقيقها ، والتي انصهرت فيها واصبحت جزءاً منها ، خلال اربع سنوات من النضال المستميت .. يريد منها ان

تتنازل عن الاهداف التي من اجلها حاربت هذه السنين الطوال ،
وفي سبيلها ضحت وتعذبت ، وسفكت دماءها (١) . يريد منها ان لا
تنشئ حكومة او تشترك في حكومة تعرف حاجاتها وتحقق
رغباتها ، وتعمل معها ، وبروحها ، على تطهير بلادها من بقايا الفاشستية ،
ومن جذورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، بل ان تستقبل
حكومة رجعية لا تستمد قوتها من ثقة الشعب بها بل من
تأييد دولة اجنبية لها ، حكومة لم تكن مع الشعب في ساعات
شقائه ونضاله ولكنها تريد ان تسلبه ثمرة جهاده وانتصاره ،
حكومة لم تحاول ان تفهم روح الشعب ولا هي بقادرة على
فهمها لانها تمثل روحاً تناقض روحه ومصالحه ، ولم تحاول ان
تتعاون مع الشعب لانها تخافه وتخشى من يقظته على بقائها
وسيطرتها وعلى امتيازات الفئات التي تمثلها .

بكلمة واحدة : ان هناك من يريد من الجماهير ان تتنازل
عن الوطن الذي حررته بدمائها والذي تريد ان تعيد بناءه
بعرق جباها . ثم يبادر ، بحجة المحافظة على النظام ، الى
مهاجمتها والتنكيل بها ، والعالم كله يعرف انها اول من يريد
النظام ، ولكنها لا تريد نظام الفوضى الذي ساد قبل الحرب
وقاد اليها ، بل نظاماً صحيحاً يقوم على اطلاق الحريات لا
على تقييدها ، وعلى الانتصار للديموقراطية لا على محاربتها ، لان

(١) كتب هذا المقال لمناسبة الازمة السياسية في اليونان وفي اكثر
البلدان الاوربية المحررة .

النظام ، بالحقيقة ، هو السيادة الشعبية ، هو احترام رأي
الأكثية ، وتحقيق امانها ، والعمل معها على تطهير البلاد من
عوامل الفساد وعناصر الافساد .

ولكن هيهات ! فمهما يكن مصير المعارك السياسية او
العسكرية الدائرة اليوم في البلاد الاوربية ، فان النصر لن
يكون في النهاية ، الا لقوى الحرية والنور على قوى الظلام
والعبودية ، لارادة الشعوب على ارادة المستعمرين والمستثمرين
ايأ كانوا واينما كانوا .

٢٠ كانون الاول سنة ١٩٢٢



ثلاث سنواتٍ من النضال

منذ ثلاث سنوات ، في ذلك العهد الرهيب من الحرب ، عهد الانتصارات الفاشستية الصاعقة ، لما كنا نرى الظلام الزاحف من الغرب يتسلل الى كثير من القلوب في بلادنا ، ولما كنا نسمع فيها ، بمثل وقع السوط على صفحة الوجه ، من يتشدق بان هتلر مقبل الى وطننا بين ليلة وضحاها ، وان بين ظهرانينا من يستعد لاستقباله ! تنادين نحن ، لمعاودة نضالنا في سبيل شعبنا ، لا يثينا ان اكثرنا كان يعاني الى اسابيع خلت ، السجن والارهاب ، وان حركتنا كانت في اعين الاكثرين جنوناً مطبقاً . كنا نعرف ان ذلك الجنون - اذا كان جنوناً حقاً - هو الشرف ، واذن فهو الواجب . وكان هذا يكفي بمجد ذاته ليضاعف ثقتنا بصحة نضالنا . فنحن نعرف ان الشرف يُكلف غالباً ، وكثيراً ما يُبذل في سبيله عرق الجبين ودم القلب . ولكن كان ثمة عامل آخر يعزز فينا تلك الثقة ، هو

ايماننا ، رغم جميع المظاهر المضللة ، بان هتلر منكسر حتماً ،
وبان قوى الحرية لا بد من ان تنتصر ، ومن واجبتنا نحن ان
نساهم في انتصارها بكل ما نملك من قوة ومن تعلق بحقوقنا
الوطنية .

لقد كان كبيراً على نفوسنا ان تستسلم بلادنا للطاغية
فيحصد شبابها ، ويدوس ثرائها ، ويسومها الخسف والهوان . فرحنا
نعتقد الاجتماعات ونصدر النشرات ، نبين فيها الدوافع الوطنية
التي تحملنا على النضال ، والاسباب المادية والمعنوية التي لا بد
من ان تسير بهتلر وبمبادئه الى القبر . ولبثنا زمناً طويلاً ونحن
اشبه بكساندر ، في اساطير الاغريق ، اوتيت معرفة الآتي
ولكنها كانت تقول للآلهة غير ما يريدون سماعه منها فكانوا
لا يبالون بها ولا ينصتون اليها . ولا ازال اذكر كيف كان
الناس - الا من سكن منهم الى المنطق او فهم واجبه الوطني
على وجهه الصحيح - يستمعون الى خطبنا في المدن والقرى
التي نهذنا اليها ، في ذهول كبير ودهشة عظي ، امام هذا
التحدي الغريب الذي يؤكده القائلون به ، والنازية في اوج
انتصارها ، ان النازية ستنهزم ، وان الارهاب لا يمكن ان
يُرهب المناضلين من اجل الحرية والعدالة .

واليوم ، بعد ثلاث سنوات ونيف ، تجيب الوقائع .. لقد
ظهر منذ وقت طويل ، ككذب الاسطورة التي زعمت بان
« المانيا لا تُغلب » ، تلك الاسطورة التي نسجها الحونة في
بلدان اوربا ليسوغوا بها خيانتهم ، والتي ما لبثت ان تحطمت

امام مقاومة الشعوب السوفياتية ، امام انتصارات ستالينغراد
واوريل وانتصارات افريقيا وايطاليا ، وهي تذوب اليوم في
الاراضي الالمانية نفسها .

لقد كان ثبات الجيش الاحمر في وجه الفاشستية الزاحفة
بجديدها ونارها ، بعد ان اكتسحت اوربا كلها ، النور الذي
بين في دياجي الشك ، الوجه الاصح من وجوه القوة .. كان
عنواناً لانتصار الحرية على العبودية ، وآية على ان حكومات
الشعوب أقوى من حكومات الشركات الاحتكارية . كانت
المانيا مع اتباعها ، ومع الملايين العشرة الذين استرقطهم من
شعوب اوربا ، ومع الصناعات التي استولت عليها في القارة
الاوروبية كلها ، أقوى بأساً واكثر عدداً من جنود الحرية ،
لكن القيم المعنوية التي كان يتمتع بها الجيش الاحمر كانت
أقوى من القوة واكثر من الكثرة . ان عبادة القوة تزغزعا
أول صدمة تجابهها ، اما التعلق بالسلام والحرية فهو يزداد في
ظل الخطر متانة وعناداً . لقد كنا نرى قوة الفاشستية المادية
كما يراها الآخرون ، لكننا كنا نرى ايضاً جانب الضعف
الروحي فيها ، وهو الجانب الذي غابت رؤيته عن الآخرين .
كانت الفاشستية تقوّي سلطانها بالارهاب والارهاب يضعفه
ويلاشه ، وتقيم مجدها على الانقراض والدماء وهد مجد كاذب
مفتعل وشيك الانهيار . فالمانيا الهتلرية وايطاليا الفاشستية واتباعها ،
لم تكن بالحقيقة ، سوى جيش مدجج بالاسلحة تدفعه رغبة
مدمرة عمياء هي رغبة السيطرة والنهب ، اما الاتحاد السوفياتي

فكان شعوبا تجمش بالحياة وتزخر بكل ما يجمّل الحياة ويرفعها
وينميها ، ومن هنا كان ايماننا الراسخ بانتصار الحرية على العبودية .
ثلاث سنوات مرت ، بمواكب دموعها وآلامها ، وأصبح
ربيع السنة الرابعة قريباً . لم يبق من شك في ان الفاشستية
قد اقتربت كثيراً من نهايتها المحتومة ، لكن الانتصار على
الفاشستية لم يبق يعني لدى الشعوب ، وما احسب انه كان
يعني لدى الاحرار في يوم من الايام ، انهيار المانيا انهياراً
عسكرياً فقط . فثمة امور كثيرة يجب ان ترافق هزيمة المانيا ،
حتى يصبح الانتصار عليها انتصاراً حقيقياً لفكرة الحرية ودرساً
عملياً لكل طاغية في العالم .

كان هتلر يفاخر بانه يعمل بلا ضمير ، فيجب ان يصبح عبرة
لكل من يريد العمل بلا ضمير ، يجب ان تتطهر الارض الى
الابد من الفكرة الفاشستية الاستعمارية الطاغية أينما وجدت .
يقول الالمان ان عام ١٩١٨ لن يتكرر ، أجل ، لن يتكرر
ذلك العام المشؤوم ، لان المانيا استطاعت ان تحتفظ فيه بملك
جيشها ، وان تنقذ اوساطها العسكرية والسياسية المسؤولة عن
الحرب ، وان تبقي على اسلحتها ومصانع الاسلحة فيها . اما
الان فيجب ان تتحطم هذه البؤر كلها ، وان يعاقب المسؤولون
كلهم ، ولا سيما طغاة المال واقطاب الصناعة الذين ليس هتلر
وهملر وغورنغ الا كلاب حراسة لديهم . تقول الصحف الالمانية :
« لقد كنا كرماء كل الكرم نحو الشعوب التي سيطرنا عليها ،
وكنا لطفاء جداً ، ومن الصعب علينا ان نصلح الان هذه

الاططاء»! ويقول احد الضباط الالمان: «على ابني ويلهم ان يكون اقل انسانية»! فيجب ان تُستأصل منذ الان جميع الاسباب التي يمكن ان تساعد ويلهم واترا به، على اعلان حرب جديدة، يكونون فيها اقل انسانية من اباؤهم، من قتلة الاطفال الذين جمعوا بين التكنيك الحديث ووحشية العصور القديمة، الذين درسوا في المعاهد والمختبرات كيف يعذبون الارواح البريئة، وكيف يحرقون الاجساد في افران الموت ثم يرسلون رمادها سماداً الى المانيا.

ليس من انسان، الا اذا كان شبيهاً بهؤلاء الوحوش او يريد ان يتشبه بهم، يستطيع ان يتنفس بارتياح قبل ان يعاقبوا وان يُظهر وجه الدنيا من بقاياهم، وليس من انسان - حقيق بان يسمى انسانا - يجرأ على طلب الرحمة بهم والاشفاق عليهم. ان ملايين الاطفال الذين قُتلوا او عذبوا او ماتوا جوعاً، او فقدوا آباءهم.. وملايين الشيوخ الذين أُهينوا وشردوا، وماتوا تحت اعقاب البنادق، أو في زوايا منسية دون ان يغمض احد اجفانهم الكليّة.. وملايين النساء اللواتي حُرمن ابناءهن وازواجهن، او قضين في ساحات الحرب او في معسكرات الاعتقال او في ذل العبودية.. وملايين الرجال الذين قُتلوا بدلا من ان يتمتعوا بالحياة، والذين خربوا بدلا من ان يعكفوا على البناء.. ان الفصول التي تتابعت في حداد الحرية دون ان تفجّر نبات الارض وزهرها، ودون ان تثير اي عاطفة انسانية في النفوس الغارقة في الظلمة، او تحرك نبض الدم الذي شح في عروق الملايين الذين لم

يموتوا ولكنهم لم يبقوا قادرين على ان يحيا حياة حقيقية -
ان هؤلاء الاشخاص وهذه الاشياء ، ان الحق الذي داسته النعال ،
والعلم الذي أهين وُعذب ، والكرامة الانسانية التي تمرغت في
الوحل - تطلب كلها الاقتصاص العادل من المجرمين ! وها هي
العدالة ذاهبة الى المانيا مع حراب الجيش الاحمر الزاحف من
الشرق ، وحراب الجيوش الاوربية الزاحفة من كل صوب ،
فلن ينجو المجرمون من محكمة الشعوب ، ولو كان للمرء ان
يموت اكثر من مرة لوجب ان يموتوا بعدد ملايين الضحايا التي
قتلها نظامهم الجائر .

وهذا النظام الذي تصفه اطلال اوروبا اصدق وصف ، يجب
ان تلفظه الارض ، وان ينبو به كل مكان يحاول ان يلذ به .
ان النظام الفاشستي ليس مسألة داخلية لدولة ما ، فيجب ان
يحارب ليس فقط في الدول التي تتبناه مثل اسبانيا والارجنتين
بل في كل بؤرة يجد فيها ملاذاً ، وفي كل شخص سرت اليه
عدوى هذا الوباء او يمكن ان تسري اليه ، ولا سيما الاوساط
الرجعية الاستعمارية التي خانت مصالح اوطانها وتعاونت مع هتلر
ضد شعوبها في اكثر البلدان الاوربية .

وقد كانت الظن بالحائنين ان واحدهم سيخبي وجهه من
العار ، كذلك الهالك بوكا الذي مر به داني في قرار الجحيم ،
حيث يشقى خائنو اوطانهم واصدقاؤهم والمحسنون اليهم ، فداس
وجهه دون ان يشعر به ، فصاح بوكا وهو يبكي « لم تدوسني
وتقلقني » فقال الشاعر « قل لي من انت ، فانا لحسن حظك

من الاحياء ، ولسوف ابعث ذكراك في الدنيا » فقال الهالك
« على النقيض يا صاح ، فاني اريد ان اكون نسياً منسياً »
فأمسك دانتى بغدائر بوكا وهتف به « اجب من انت او
استأملت شعرك » فقال خائن قومه « افعل ما تشاء ، فاني
لست مجيبك ، ولست بمريك وجهي ، ولو دستني بقدمك الف مرة » .
كان الظن بالخائنين ان واحدهم سيخبي وجهه من العار ،
فاذا بهم قد بلغوا من صفاقة الوجه حداً يريدون معه ان
يجدوا مسوغاً للخيانة الوطنية ، ولم يعدموا فريقاً من زملائهم ،
ممن لم تقضهم الحرب كما فضحت الآخرين ، يعطفون عليهم
ويدافعون عنهم . ولكن عبثاً يحاول جنود الاستبداد ، فقد
كشفت الحرب عن جواهر الاشياء ، فشمّل الوعي كافة
الشعوب ، وظهرت الرجعية الاستعمارية على حقيقتها ، فعرف
الناس كلهم دوافع المؤامرة التي قامت بها منذ مؤتمر مونينخ ،
الى محاولات التسوية مع هتلر ، الى التعاون الصريح مع اعداء
الايوان التي تنتسب اليها اسماً لا روحاً . عبثاً يحاول جنود
الاستبداد ، فان تضحيات الشعوب لا يمكن ان تضيع ، وان
القوى الحرة ، التي صمدت امام الارهاب الهتلري وظهرت عليه ،
تستطيع ان تصمد امام مقلدي الهتلرية وان تنتصر عليهم ،
وانها خليقة ، اذا شاهدت السياسيين يتحولون الى مقامرين ،
ان تسحق مائدة اللعب واللاعبين .

ونحن الذين آمنا بقوة الحرية ووثقنا بانتصارها في عهد
الهجمات النازية الصاعقة ، وحين كانت قوى العبودية على ابواب

بلادنا ، لا تستطيع دسائس الرجعيين الاستعماريين ، الذين لا يريدون ان يعرفوا ان عهدهم قد زال وان عصراً جديداً قد بدأ ، ان تنزع ثقتنا بالشعوب المناضلة من اجل الحرية في مشرق الارض ومغربها ، وایماننا بان الظفر محتوم لهذه الشعوب في نضالها المجيد . ان النور الذي سطع في ظلمة العالم ، والذي يزداد تألقه سطوعاً كلما اقتربت الفاشستية من نهايتها ، لهو نور الحياة و ارادة الحياة . فعبثاً يقف المستعبدون امام تيار الحرية لانه تيار الحياة ، وانه ليستحيل ان تسلم الشعوب ثمرة انتصارها الى المستعبدین ، فيرجع امرها كما بدأ ، وترضى بان تخلص من تضحيات الحرب الى العودة لخدمة اسيادها وصنع قيودها ، وتتخلى عن مثلها العليا في العدالة والمساواة والحرية لتستمع بعدل المساواة في الظلم .

ان ذلك السراج القديم قد نضب زيته وعمما قليل ينطفئ . قتيله . لقد استنفد اصحابه اكثر محاولاتهم ليحموا انفسهم من حكم التاريخ . وان الايدي التي كانوا يخنقون بها ضحاياهم قد بدأت تتصافح . لم يبق في ميسور احد ان يقول ان من حقي ان اسرق لان بيدي سلاحاً . ولم يعد ممكناً ان تظل شريعة اللصوص دعامة للمدينة . وها هي ملايين الناس ، من جميع الشعوب ، تسير في حشد عظيم ، نحو حياة حرة جديدة .

ولقد تعلمنا خلال هذه الحرب معنى الحرية . عرفنا ان الحرية لا يمكن ان تعيش بدون الديمقراطية الصحيحة ، وان الديمقراطية والوطنية صنوان لا يفترقان فليس من وطني

صحيح من ليس ديموقريطاً حقاً ، وان الشعب هو القوة
الاساسية في النضال من اجل الحرية فلا يمكن بعد الان تجاهل
ارادته وانكار قوته .

ان قوى الشعوب السليمة ، التي ولدت في غمرة النضال من
اجل اوطانها ، هي التي ستضع بيدها ، وحسب مشيئتها ، مستقبل
الانسانية . وفي العالم الذي تبنيه الشعوب ، لا يكون ثمة مستعمرون ،
اذ لا تكون هناك شركات احتكارية . ومن اجل هذا نستقبل
العام الجديد بثقة اكبر من قبل وايمان ارسخ بمستقبل الحرية .



ثلاث سنوات مرت ، كانت مئة اكثر من الموت وحية
اكثـر من الحياة ، ولكن تباشير العام الجديد تحمل معها تباشير
الظفر . وها هي جيوش الحرية تزحف لترفع علم النصر على
برلين ، فتضطرب اغلال العبودية في جميع الاصقاع لزحف
هذه القوى الجديدة التي تزرع في حقول المعارك سلام الغد
واخوة العالم الجديد .

سنوات رهيبة تقضت على الانسانية فعلمتها قيمة حياة الانسان ،
لكن علمتها ايضاً ان تكون اكثر سخاء من اجل حرية الانسان .
ايتها الانسانية المعذبة ، ان دمائك ستسيل ايضاً من اجل
معركة الحرية ، ولكن .. ربما للمرة الاخيرة .

في ١ كانون الثاني سنة ١٩٤٥

جيش السلام والحرية

لا يزال الجيش الأحمر ، المنطلق بشجاعة لا حد لها ، والمزود بأحدث المعدات الحربية وارقى المعارف العسكرية ، يلاحق القطعان الهتلرية الهاربة في اربع مقاطعات المانية ، منزلاً بها هزيمة بعد اخرى ، مواصلاً زحفه المجيد الى برلين .

ان هذا الجيش الظافر ، الزاحف زحف الجبابرة الميامين ، والحامل على حرا به القصاص العادل لقتلة الاطفال ، والحرية المقدسة للشعوب المضطهدة ، هو احدث الجيوش التي تحارب المانيا الهتلرية ، فهو في هذه الليلة العظيمة (١) يكمل سن السابعة والعشرين من عمره ، وما اجمل سن السابعة والعشرين ، سن الفتوة والبطولة والمرؤة ...

هو ابن الثورة الاشتراكية وقواها السليمة الحرة ... ففي

(١) اذيع قسم من هذا الفصل من راديو الشرق في مساء ٢٢ - ٢٣ شباط سنة ١٩٤٥ .

اوائل شباط سنة ١٩١٨ ، وقد تم انتصار السلطة السوفياتية على خصومها بفضل بسالة القوات الثورية المرتجلة وفرق الحرس الاحمر ، هاجمت الجيوش الالمانية هذه الدولة المسالمة الناشئة ، فكان عليها ان تنشئ قوة نظامية تحمي الثورة من اعدائها في الداخل ومن القوى الاجنبية المتربصة لها او المغيرة عليها . وفي اليوم الثالث والعشرين من شباط في تلك السنة ، احرزت وحدات الحرس الاحمر انتصاراً كبيراً على الجيوش الالمانية في ضواحي نافرا وبسكوف فكان ذلك اليوم من الايام الخالدة في تاريخ الانسانية ، فيه ولد الجيش الاحمر ، اول جيش انشئ للسلم لا للحرب وللحرية لا للعبودية .

وقد اتفق لذلك الجيش الناشئ يومذاك ، مثل ما اتفق لهرقل ، بطل الابطال ، اذ تسالت الافاعي الى مهده لتقتك به قبل ان ينمو ويشد ساعده ، ولكن يدي هرقل كانتا قويتين منذ ابصر النور ، وقد استطاع ان يقبض بهما على اعناق الافاعي المحدقة به فيتقي خطرهما ويصرعها . كذلك زحفت الجيوش الاجنبية شطر الجيش الاحمر منذ مولده لتبتطش به ، فخاض معارك خطيرة اكتسب فيها تجارب كثيرة ، وانشأ ملاكاً قديراً ، وابدع اساليب جديدة في الفن العسكري ، وخرج منها متوجاً باكاليل الانتصار .

ودرجت الدولة السوفياتية بعد ذلك في مضمار التطور وقد ذلت مصاعبه وراحت سبله ، ودرج الجيش الاحمر معها يقوى بقوتها ويرقى بروقيها . كان الاتحاد السوفياتي ، ولا يزال ، بلاد

السلام والحرية ، لكنه كان يعرف ان السلام والحرية بحاجة الى جيش قادر على حمايتهما ، فكان حريصاً على تعزيز قوته بانماء جيشه الاحمر وثقيقته وتزويده بالمعدات الحربية الحديثة .

ولم تنقُض خمس وعشرون سنة ، حتى اضطر هذا الجيش الناشئ ان يخوض اعظم حرب عرفها التاريخ ، ويجابه اكبر آلة عسكرية ميكانيكية . فقد انقضَّ الجيش الالمانى على الاتحاد السوفياتى ، بعد ان سيطر على اوربا كلها ، وسخر قواها المادية والبشرية لخدمة جهازه الحربى ، واستطاع ، بفضل المفاجأة التى باغت بها خصمه ، وبقدفه فى الميدان ١٧٠ فرقة من فرقته المختارة ، تدعيمها قواته الميكانيكية المصفحة والقسم الاكبر من طيرانه ، ان يتوغل فى الاراضى السوفياتية وان يبلغ منطقة موسكو بعد قتال عنيف ، ضحى فيه خلال شهرين بأكثر مما خسره خلال سنتين كاملتين من حربه فى اوربا .



وطالت معركة موسكو اكثر مما كان يتصور الخبراء الالمان ويقدرّون ، وتقانى ابناء موسكو فى الدفاع عن مدينتهم الحمراء ، وتطلعت الدنيا الى عاصمة الحرية ، الى أم النور وفرح الارض ، تخشى ان ينطفئ نورها ويذول فرحها . لم يبق فى العالم انسان حر لم يشعر بالقلق يعصف بنفسه ، لان كل حر فى العالم كان يشعر بان فى موسكو قطعة من قلبه ومستقبله . وفى هذه الموجه من القلق العام ، كانت موسكو

وحدها هادئة وباسمة امام الخطر المتعظم يوماً بعد آخر ،
وقد اقسام ابناءؤها ، المخلصون لتقايلهم الثورية ، اما ان ينتصروا
او يموتوا ، ولكنهم كانوا لا يتكلمون الا عن الانتصار .

وفي اوائل تشرين الاول سنة ١٩٤١ شنت المانيا على
موسكو هجوماً جديداً ، حشدت فيه جميع ما لديها من عتاد
وقوة ، وقال هتلر الذي كان يقود الحملة بنفسه : « لقد أنجزت
استعدادات ما كان يمكن ان تخطر على بال انسان ، وقد
وُضعت هذه الاستعدادات وأُحكمت ، في دقائقها وتفصيلها ،
لكي توجه الآن الضربة المميتة الى العدو » . وساد الاوساط
الالمانية يقين بان هذه الضربة ستقضي قضاء مبرماً على قوة
الاتحاد السوفياتي ، وتجرده من القدرة على القيام بأي عمل
عسكري . وكانت الدهشة عظيمة ، لما وقف ستالين يخاطب
المواطنين السوفيات ، وقد بلغ الهجوم الالمانى ذروته ، بقوله :
« ايها الرفاق ! ان العالم يرى فيكم القوة القادرة على ابادته
قبائل الغزاة واللصوص الالمان . ان شعوب اوربا الراضحة
تحت نير المحتاحين الهتلريين تتطلع اليكم وتعتبركم محرريها . ان
رسالة تحريرية عظيمة تقع على عاتقكم فكونوا بها جديرين » .
ولكن الدهشة ما لبثت ان زالت لما انقلب الدفاع السوفياتي
بغثة الى هجوم ساحق على طول الجبهة ، وكان هذا الهجوم
نذيراً بانهيار الجهاز الحربي الالمانى في هذه المنطقة كلها ، بعد
معركة عنيفة استنفدت قوته وجهده طوال سبعين يوماً ، فبدأت
اذاعة برلين تشكو من الطقس السيء ، وتحدث الناس عن

هذه المعجزة متسائلين عن عناصرها الحقيقية ، وكتب اهرنبورع :
« لا نقول ان معركة موسكو كانت معجزة ، كلا ، ان
المعجزة هي شعبنا ، وهذه المعجزة ما زالت تنمو في نفوسنا
منذ ربع قرن : لقد وثقنا بالانسان ، فانقذ الانسان موسكو »



وفي صيف ١٩٤٢ حشد هتلر قواه مرة ثانية وقذف في
جبهة واحدة ١٧٩ فرقة المانية و ٦١ فرقة من البلدان التابعة
له ، واستطاع ، نظراً لفقدان الجبهة الثانية في الغرب ، ان يبلغ
خفاف الفولغا وان يُحْدق بستالينغراد ، فعانت عروس الفولغا
من هول الصراع الذي نشب حولها وفيها ، ما لم تعانه
مدينة اخرى في هذه الحرب وفي كل حرب . ولكن هتلر ،
الذي استطاع ان يحطم عمران ستالينغراد ، تعذر عليه ان
يحطم شجاعتها ، فشاهدت كل حجرة من حجارتها مثلاً رائعاً
من بطولة ابنائها ، وكان العدو لا يتقدم فيها ، اذ يتقدم ،
الابضة اشبار خلال بضعة ايام ، يسفك في سيلها دماء الالوف
من جنوده . وهكذا ابتلعت ستالينغراد شيئاً فشيئاً خيرة
القوى الهتارية ، ولقد اقتربت خنادق الالمان من مركز
القيادة السوفياتية فيها حتى لم يبق بينهما سوى ٢٠ متراً ،
ولكن هذه الخنادق لم تكن عاصماً لهم من الموت ، بل كانت
القبور التي دفنوا فيها .

لقد كان الفولغا عزيزاً على المدافعين عنه لان دماءهم قد

جرت فيه كما قالت فتاة اوكرانية كانت تحارب على ضفته ،
ولأنهم كانوا يعرفون ان دفاعهم عنه انما هو دفاع عن حرية
وطنهم التي لا يستطيعون الحياة بدونها . ومن ثم كان شعارهم
الثبات مهما كان الثمن ، وقد ادى ثباتهم الى انتصارهم ، اذ
انكشفت المعارك الهائلة التي استمرت الى آخر كانون الثاني
سنة ١٩٤٣ ، عن خطة حربية سوفياتية لا مثيل لها ، ادت الى
تطويق القوى الفاشستية في تلك المنطقة كلها ، وابطادتها ، واسرها
جميعاً ، فكان انتصار ستالينغراد اعظم انتصار حربي عرفه
التاريخ ، وتساءل الناس مرة اخرى عن سر هذه المعجزة
الجديدة ، فاجاب جو كوف : « لقد قام كل واحد منا بواجبه ،
لان كل واحد منا كان يعرف ان ليس مستقبل روسيا
وحدها هو الذي يتقرر هنا بل مصير الانسانية المتحضرة
بأسرها ، تلك هي المعجزة ! »

ان ستالينغراد لعريقة في الجهاد ، فقد كانت حصن الثورة
الاشتراكية الذي صد العدو وقهره ، وقام بمعجزات هائلة من
البطولة ، رغم وطأة الجوع والحرب في السنوات الاولى من
حياة الاتحاد السوفياتي ... وقد كانت تدعى يومذاك تزار تسين
فحق لها ان تُسمى بعدئذ باسم الرجل الفولاذي الذي كان
على رأس نضالها العظيم ، وها هي ذي تستحق اسمها مرة
اخرى ، بانقاذها للمرة الثانية وطنها الاشتراكي .

وبينا كان الطوق الحديدي يلتحم حول الجيش الالماني في

منطقة ستالينغراد ، كان ثمة طوق يتكك ، هو الطوق الذي ضربه الالمان الهتاريون واذنابهم حول لينينغراد عاماً وبعض عام ، بعد ان تحطمت هجماتهم امام مقاومتها الحديدية ، دون ان ينالوا من صمودها العجيب . وقد صب العدو على جمال هذه المدينة وسعادتها وابلاً من قنابل مدافعه وطائراته ، وألح عليها في حصارها الطويل ، البرد والمرض والجوع ، ولكنها لم تن ولم تتخاذل امام العدو البغيض ، بل ظلت صامدة ، صابرة ، مناضلة بكل ما لديها من قوة . وفي هذا الجو العاصف من الكفاح والحرمان ، استمرت الحياة في سيرها المعتاد ، ليس في المختبرات والمصانع فحسب ، بل في المدرسة والمطبعة والمسرح ايضاً ، فوُضعت في الاقضية والملاجيء ، وعلى ضوء مصابيح البترول ، مؤلفات ، وطُبعت كتب ، والقيت محاضرات ، ومثلت اعظم الاوبرات والمسرحيات ، وارتفعت الحان شوستاكوفيتش أعلى من مدافع الالمان وأفعل في اخراز النصر .

لقد ساهم كل فرد من سكان لينينغراد ، بوسائله وجهوده ، في المقاومة الجبارة التي ابدتها هذه المدينة امام جحافل الهتاريين الالمان واتباعهم من كل قطر اوربي . هكذا انتصرت مدينة لينين على البرد والمرض والجوع ، واستطاعت ان تحطم الطوق المضروب حولها ، وان تهاجم خصومها فتهمهم وتطاردهم . في هذه المدينة عاش لينين وكافح ، فيها أطلقت سنة ١٩١٧ اول رصاصة في سبيل النظام الاشتراكي ، وفيها خطب لينين في انصاره القلائل يوم احدث جيش بودنيتش بـ لينينغراد سنة ١٩١٩ ،

قائلاً لهم ان الموقف حرج وجد خطير ، فلم يأسوا بل ناضلوا وانتصروا ، كما ناضل ابناؤهم في سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٣ اعظم نضال وانتصروا أعظم انتصار . وكما استحققت هذه المدينة اسمها الخالد تقديراً لاجادها القديمة ، تستحقه اليوم - هي ايضاً - بما احرزت من انتصار جديد .

ومنذ انتصاري ستالينغراد ولينينغراد والجيش الاحمر يواصل تقدمه الى الامام . ولقد اجتاز منذ ذلك الوقت اكثر من ٢٤٠٠ كيلومتر في جبهة طولها آلاف الكيلومترات و اباد ملايين الوحوش الهتاريين ، وحرر عدداً من الشعوب الراححة تحت نيرهم ، وهو لا يزال يواصل زحفه المجيد لتحرير الشعب الالماني نفسه من النظام الفاشستي ، ودعائه العسكرية والاقتصادية والفكرية ، وانقاذ العالم الى الابد من سياسته العدوانية الطاغية . وهكذا اثبت الجيش الاحمر في هذه الحرب العالمية الرهيبة التي تحمل اثقل اعباءها ، و احرز المع انتصاراتها ، وحطم اكبر جيوشها ، انه اقوى جيش في العالم .. فلما هي العناصر التي تؤلف قوته ، وما هي العوامل التي تؤدي الى انتصاره ؟

ان ثمة عوامل اساسية ثلاثة لا بد من تضافرها لاحراز النصر في الحرب الحديثة : اولها العناد الحربي الآلي الذي لا يمكن ان يتألف بدونه جيش قوي ، وثانيها الفن العسكري الذي لا بد من توافره في القادة والجنود المحاربين لكي يحسنوا

استخدام جهازهم الحربي . ولكن القوة المادية منها عظمت ومنها بلغت مهارة اصحابها ، لا تكفي وحدها لاجراز نصر حاسم بل يجب ان ترافقها قوة معنوية خارقة تجعل من كل جندي بطلاً يبذل دمه بسخاء في سبيل وطنه وعقيدته .

وهذه العناصر الثلاثة قد توافرت للجيش الاحمر على وجهها الاكمل . فالصناعة السوفياتية الجبارة زودت القوات السوفياتية بأقوى الاسلحة واحديثها ، وكانت القاعدة المادية والفنية لانتصارات الجيش الاحمر . وقد ثقف المحاربون السوفيات من ناحية ثانية فن الحرب ، وتمرسوا فيها ، وابدعوا اساليب وخططاً عسكرية خارقة ، وازدادوا قوة على قوة . فاذا كانت الجيوش الاستعمارية التي لا تتمتع بمعنويات قوية ولا تربطها بشعبها الا صلة السيد بالمسود ، تبدأ قوية جبارة ثم تنهار شيئاً فشيئاً حتى تهلك وتفنى ، فان الجيوش الشعبية تنمو اثناء نضالها ، وتقوى فيه ، ويتعاضد بأسها يوماً بعد آخر ، لانها تحارب في سبيل غاية تحريرية شريفة ، ولأن حربها هي حرب تقدمية ترافق تطور التاريخ وتعمل على دفعه الى امام ، لا حرباً استعمارية تعارض تقدم المدنية وتحاول ايقاف الانسانية في سيرها ورقيا .

والجيش الاحمر انما صفته الاساسية ومزيتة الكبرى ، هو انه جيش الشعب الذي يستمد قوته من معنوياته القوية ، من المبادئ الانسانية التي يدين بها ويحارب من اجلها ، من الحريات والحقوق التي يتمتع بها ويدافع عنها ، من حبه لوطنه وشعبه واسرته ، من وحدة الدولة السوفياتية بشعبها وجيشها

وحكومتها . ومن ثم رأينا هذا الصمود العجيب الذي صمده في وجه الاخطار الكبرى التي احدثت به ، بل رأينا كل مواطن سوفياتي ، اينما كان مركزه ومهما كان عمله ، يشعر بانه جندي يجب ان يندرج قواه كلها لفكرة واحدة ، هي فكرة النصر والحرية . ان الاستعداد للحرب يتطلب من دولة استعمارية كالدولة الالمانية ان تحوّل بلادها خلال سنوات طويلة الى ثكنات ومعسكرات اعتقال ، اما دولة كالدولة السوفياتية فان شعبها يرى من واجبه ومن دواعي فخره ان يدافع عنها . ان الجندي هناك آلة مسيرة يسخرها المستعمرون لاستثمار شعبهم والشعوب الاخرى ، وهو هنا حارس حقوق الشعب وحرياته ، هو عامل مثقف ، عظيم الشعور بواجبه والفهم لرسالته ، كمواطن يشاطر مواطنيه افراحهم واتراحهم ، حقوقهم وواجباتهم ، وكأنسان شديد الاعتزاز بكرامته والحرص على حرّيته .

لقد بلغ الجيش الاحمر مستوى رفيعاً في التكنيك ، ولكن له ايضاً امتيازاً اكبر على الجيوش الاخرى ، فهناك تناقض في الجيش الهتلري مثلاً ، بين التكنيك الراقي وبين ضمير الانسان ! ولكن النظام السوفياتي قد ازال هذا التناقض بين الآلة والانسان في جميع مرافق الحياة . فالجندي الاحمر مقتنع ، عندما يستخدم آله الحربية ، بانه انما يستخدمها من اجل قضية الحرية والسلام .. وثمة امتياز آخر : ان التكنيك الراقي يتطلب من صاحبه اوفى مقدار من البداهة والابتكار والاستقلال في الرأي ، والجيش الاحمر هو الجيش الوحيد الذي لا يناقض مصلحته

ولا يخالف مبدأه ان يتمتع كل جندي فيه باوفى نصيب من
البداهة والابتكار والاستقلال في الرأي .

عندما يتحدث ستالين عن مزايا الجيش الاحمر ينوه اكثر
ما ينوه بانه جيش الاتحاد بين العمال والفلاحين والمثقفين ،
جيش الاخاء بين الشعوب السوفياتية ، جيش الدفاع عن
الوطن الاشتراكي ، وبكلمة واحدة : انه جيش شعب يملك
وطنه ويحكم بلاده ، شعب يتمتع بنظام سوفياتي . فلولاً النظام
السوفياتي لما كان الجيش الاحمر ، وبدون هذا النظام لا يمكن
ان ينشأ جيش كالجيش الاحمر !

وهناك ميزة اساسية اخرى من مزايا هذا الجيش لا يفتأ
ستالين يرددها ويشيد بها ، هي انه جيش تقوم مبادئه على
احترام جميع الشعوب الاخرى وتقدير حقها في الحرية والاستقلال ،
ومن اجل هذا ، قبل اي شيء آخر ، وفوق اي اعتبار
آخر ، نحى نحن العرب الجيش الاحمر ، ونبتهج لكل انتصار
يحزره على قوى العبودية ، فقد كان خلال السنوات الاربع
من نضاله ضد البربرية الهتلرية ، القوة التي اعادت الى الانسانية
املها بالحرية ، ووطدت ثقة الشعوب بحقها في الحياة .

ولا ريب في ان شعور الجندي الاحمر بانه معقد امل
الاحرار في العالم ، وحامل رسالة التآخي بين الشعوب ، يضاعف
من قوته المعنوية ومن حماسه في القتال . ومن هنا قول
المارشال ستالين : ان قوة الجيش الاحمر في انه لا يحمل ،
ولا يمكن ان يحمل ، بغضاً للشعوب الاخرى ، وفي جملتها

الشعب الالماني نفسه ، وفي انه قد نشأ على ان ينظر نظرة
المساواة الى سائر الشعوب والاجناس ، نشأ على احترام حقوق
الشعوب الاخرى . ان نظرية البغض العرقي الالمانية وتطبيقها
قد جعلت جميع الشعوب المشبعة بحب الحرية عدوة لالمانيا
الفاشستية ، ولكن نظرية الاتحاد السوفياتي القائلة بالمساواة بين
سائر الاجناس ، وتطبيق مبادئه القائم على احترام حقوق الشعوب
الاخرى ، قد جعلها الشعوب المحبة للحرية صديقة للاتحاد
السوفياتي . من هنا كانت قوة الجيش الاحمر وضعف الجيش
الالماني .

٢٣ شباط سنة ١٩٦٥



الوطنية والديموقراطية

شهد العالم بين الحربين العالميتين الاولى والحاضرة ، ثلاثة انواع من الدول : الدولة الديموقراطية السوفياتية ، والدولة الديكتاتورية الفاشستية ، والدولة الديموقراطية البرجوازية الحائرة بين هذه وتلك . في الدولة الاولى كان ثمة وفاق بين الحكومة وشعبها ، وفي الدولة الثانية كان ثمة سيطرة تامة للحكومة على شعبها ، أما الصلة بين الحكومة والشعب في بقية الدول ، فكانت تختلف تبعاً لدرجة الديموقراطية فيها .

وكانت الدعايات المغرضة والمنظمة ، التي احيطت بها الدولة السوفياتية ، قد شوّهت صورتها الحقيقية لدى بعض الناس ، كما ان هذه الدعايات نفسها اظهرت الدولة الفاشستية بمظهر خادع ، براق ، ضلل بعض الساذجين ، واغرى بالتشبه بها والسير على غرارها ، بعض الجماعات الرجعية الاستعمارية في الدول البرجوازية ، التي بدأت تخشى على بقائها من اتساع

حرية الرأي ، وتعاضم اليقظة الشعبية في اوطانها وفي جميع
انحاء العالم ، وهل من اغراء اقوى لدى افراد هذه الجماعات ،
من تأليه الدولة ما داموا هم آلهتها والمتصرفون باقدارها !

تقول الدولة الآله ، او الدولة الفاشستية ، لرعاياها :
ليس لكم حق اختيار اهدافكم ، فالدولة هي التي تعينها
لكم . وليس لكم حق تطالبون به بل طاعة تخضعون
لها . وليس لكم وجود مستقل ، فما انتم الا مخلوقات تتساهم
بناء الدولة وتحقيق اغراضها . لا تكلفوا انفسكم عناء التفكير
فان الدولة تفكر من اجلكم . واذا عرفتم كيف تكونون
عيداً مسيرين فانكم ستكونون اسياذ العالم . فلا تستسلموا
للكوى بل دعوا البنادق تغني لكم ...

بذلك يُقضى على حرية الرأي وحرية النضال الاجتماعي ،
وتتصرف الشعوب عن الكفاح من اجل حقوقها ، وانتزاع هذه
الحقوق من ايدي الجماعات التي تستثمرها ، الى اغتصاب حقوق
الشعوب الاخرى وتسليمها لقمة سائغة لتلك الجماعات المستثمرة ،
تلك الجماعات الرجعية الاستعمارية في الدولة ، من الرؤساء
المسيطرين ، الى تجار الاسلحة ، الى اصحاب المصانع والشركات
الاحتكارية الذين يبحثون دائماً عن اسواق جديدة .

ولقد طما سيل المذاهب الديكتاتورية في اوربا قبل الحرب
الحاضرة ، وراج زي التشبه بالديكتاتورين ، حتى خيل لبعض
الديموقراطيين انهم يُضحون بانفسهم من اجل مذهب متلاش ...
وكانت الديموقراطية تتلاشى في اوربا حقاً ، ويضعف

شأنها في الحياة الاجتماعية والسياسية . كان هنالك ديموقراطية
كاذبة مشوهة ، بتراء . وبدلاً من ان تنقذ اوربا نفسها بتوسيع
آفاق الديموقراطية فيها ، صارت تتخلى عنها شيئاً فشيئاً .
فكانت سياسة التخاذل أمام اعمال هتلر وموسوليني العدائية في رينانيا
والنمسا والحبشة والباييا ، وسياسة الحياد الكاذب المجرم في
الحرب الاسبانية ، تخفي تحت ستارها الخادع ، ميلاً قوياً في
الدول الديموقراطية البرجوازية الى التفاهم مع الفاشستية وتأييدها
والتشبه بها ، وقد ظهر هذا الميل بجلء في مؤتمر مونيخ
الذي كانت طعنة دامية وجهتها الى الديموقراطية ايدي
ابنائها . وكان يمكن ان يُفسر مؤتمر مونيخ ، كما زعموا ،
كهذنة تستفيد منها الدول الديموقراطية لحشد قواها وتوحيد
صفوفها ، لو انها عمدت الى ذلك حقاً . لكن كلما كان
الخطر الفاشستي يتعاظم ، كانت تتعاضم معه مقاومة المسؤولين
في الدول البرجوازية للحركات الديموقراطية الشعبية في بلادهم ،
وتجاهل الدعوة التي كان زعماء هذه الحركات لا يفتأون يوجهونها
في سبيل توحيد القوى ومجابهة الخطر بصفوف قوية ...

فلما وقعت الحرب ، زحفت الحيافل الالمانية المصفحة على
اوربا ، فحاربت اوربا الحديد الواغل باجساد ابنائها ... وكان
الديموقراطيون الصادقون يعتقدون ، رغم ذلك ، بان الامل لم
يتبدد ، وبان الروح الديموقراطية كفيلة بان تلهب حماسة
الشعوب للدفاع عنها . لكن حكومات هذه الشعوب كانت
لا تزال تؤكد بان الحرب بعيدة عن اراضيها ، ولم يتورع

بعضها عن تسريح قسم من الجنود الذين عبأتهم ، او التفكير
بارسال فريق منهم لمساعدة فنلندا ، بينما كانت الجيوش الالمانية
على ابواب بلادها !

ولما شعرت هذه الحكومات بوطأة الحرب وبتوغل الالمان
في اراضيها ، بادرت الى القاء القبض على عشرات الالوف
من عمالها وجنودها الديمقراطيين ، لانها لم تكن تحشى اندحار
اوطانها بقدر ما كانت تحشى انتصار الحركات الشعبية فيها .. بل لقد
كان هتلر يمثل لدى اكثر الطبقات الحاكمة في اوربا ، الامل
الوحيد بانقاذ مصالحها التي هي اغلى لديها ، واعز عليها ، من مصالح
اوطانها . .

لما دنت الجيوش الالمانية من العاصمة الفرنسية — مثلاً —
كان الباريسيون يتذكرون ثبات مدريد بوجه الطغاة. ثلاث
سنوات كاملة ، ويتذاكرون دروس فالمي وحصار باريس
سنة ١٨٧١ ، ويستعدون للدفاع عن عاصمة الثورة الكبرى .
ولكنهم ما لبثوا ان تلقوا امراً بمغادرة باريس وبالاستسلام
للجيوش الالمانية الزاحفة عليها !

وحينئذ ظهر على المسرح اناس كانوا الى شهور خلت
يتصدرون الاوساط السياسية ، لالقاء دروس متطرفة في القومية
والوطنية ، فاذا بهم الآن يدعون الى عدم المقاومة ، والى
الاستسلام ، والى التعاون ! وبعد ان كان كويسلنغ رمزاً
للخيانة اصبح في بعض الاوساط بطلاً وطنياً . ولم يكن
ظهور امثال بيتان ولافال وكويسلنغ اتفاقاً محضاً ... فلما

دخلت الجيوش الالمانية باريس ، صدرت فيها صباح اليوم
التالي جريدة فرنسية باسم. « النصر » ! وعادت الى الصدور
جريدة دوريو « الحياة القومية » لتلقي دروسها « الوطنية »
من جديد وتطالب بمطاردة الشيوعيين « اعداء وطنهم » ، فأوقف
الالمان عدداً كبيراً من زعماء الحركة الديموقراطية !

هل كان ذلك نهاية الديموقراطية ؟

كلا ، بل كان بداية حرب الشعوب على الهتلرية وانصارها
وعملائها ، في سبيل ديموقراطية صحيحة . فقد ادركت الشعوب
بفطرتها السليمة ، بعد زوال الدهشة التي استولت عليها ، ان
انهيارها لا يمكن ان يكون نتيجة عوامل عسكرية فقط ، بل
كان على الاكثر نتيجة لفقدان التعاون بين الحكومات
والشعوب تعاوناً صادقاً وثيقاً ، ونتيجة تشجيع هذه الحكومات
للعناصر الفاشستية التي كانت تحارب اوطانها باسم الوطنية نفسها :
نتيجة خيانة الطبقات الحاكمة لمصالح اوطانها في سبيل
مصالح الشركات الاحتكارية التي تمثلها وتدافع عنها .
ادركت الشعوب ان ما جرّها الى الكارثة هو قلة الديموقراطية
لا كثرتها ، وهو ضعف الديموقراطية لا قوتها ، وهو خيانة
الديموقراطية لا الاخلاص لها ، فنهضت تناضل اعداءها في الخارج
وفي الداخل ، ليس من اجل الديموقراطية القديمة فقط ،
بل من اجل ديموقراطية اوسع واقوى وافضل .

وسرعان ما وقف الى جانب الشعوب في نضالها المجيد
الشريف ، جميع الوطنيين المخلصين ، وحتى المترددين منهم ،

الذين كانوا يشكّون قبل الحرب في المبادئ الديمقراطية ،
ويبدون حذرهم من جماهير الشعب ، والذين اعجبوا اخيراً بصلاية
الشعب ، وسلّموا بحكمته العميقة التي تجمع بين الوطنية الصادقة
والديموقراطية الصحيحة ، فأصبحت الديمقراطية والوطنية ، لدى
ملايين الناس الذين يكافحون العبودية النازية في شرق اوربا
وغربها ، كلمتين مترادفتين لمعنى واحد .

لقد كانت الحرب الحاضرة محكاً للانظمة الاجتماعية المختلفة ،
خلال الصراع العنيف الذي اشتبكت فيه الفاشستية والديموقراطية ،
تفوق هذه على تلك تفوقاً لا يُمارى فيه ولا يحتاج الى برهان ،
بل اقام مئات الدلائل على ان العالم قد بلغ حداً من الوعي
والتطور لا يستطيع الحياة فيه ، ولا يستطيع مواصلة الرقي ،
الا في ظل ديموقراطية تتسع باستمرار وتسير دائماً من حسن
الى احسن .

ولقد كانت حجة اعداء الديمقراطية في مكافحتها قبل
الحرب ، ان اتساعها وتطورها في بلد من البلدان ، قد
يؤثر في سير الحركة الوطنية فيه ويضعف مقاومته للعدو الاجنبي .
ولكن تجربة ، بل تجارب هذه الحرب ، قد اثبتت بطلان
هذا الزعم ، وأرثنا على النقيض ، ان جنود التحرر الوطني
انما هم جنود الديمقراطية الصادقون ، وان الدفاع عن الوطن
لم يتم بنجاح الا حيث كانت الديمقراطية سائدة مزدهرة ،
وحيث كانت الحكومة وشعبها على وفاق تام لا تنافر بينهما
ولا تناقض بين مصالحهما .

وهذه معجزات الجيش الاحمر ، تثبت اثبات اليقين ، ان الشعوب السوفياتية قد ارتفعت الى قمة الوطنية وذروة البطولة ، لانها كانت تدافع عن اكثر الديمقراطيات اتساعاً وتقدماً في العالم . بينما رأينا الدول الاوربية تتداعى امام الفاتح وتخضع لنيره ، لانها قاومت الحركة الديمقراطية في اوطانها اكثر مما قاومت عدوان الاجنبي عليها ، ولانها سمحت للعناصر الفاشستية بحرية العمل فألفت في بلادها طواوير خامسة تخدم العدو تحت ستار الوطنية ومكافحة الشيوعية ... وما ان سيطر النازي على هذه البلاد الاوربية ، حتى رأينا حركة المقاومة الوطنية فيها تنبثق من قلب الحركة الديمقراطية نفسها ومنها وحدها . فابطال الديمقراطية في اوربا ، امثال بيرى في فرنسا ، واركو في ايطاليا ، وتيتو في يوغوسلافيا ، وديمتروف في بلغاريا كانوا في هذه الحرب ابطال الوطنية المناضلين والمستشهرين في سبيل بلادهم وشعوبهم .

وهكذا تلاقت الوطنية والديمقراطية ، بل هكذا تبين أن مفهوم الوطنية الصحيح لا يختلف عن مفهوم الديمقراطية الصحيح ، ولا يمكن ان يتعارضا في شكل من الاشكال . فليس بديموقراطي صادق من ليس وطنياً صادقاً ، وليس بوطني صحيح رجل يحارب الديمقراطية في بلاده ، ينكر حق مواطنيه في الحرية الفكرية والرخاء الاقتصادي ، ويحاول بناء كيان وطنه على اسس فاشستية صريحة او مستورة ، فضلاً عن ان هذه الردة الى الاساليب الارهابية لم تبقى ميسورة ولا مستطاعة بعد

ان تحطمت في العالم أقوى اساليب الارهاب . وقد كان لنا في الحرب الحاضرة الف درس وعبرة على أن الخوف من الحرية هو الذي يقود الى العبودية ، وأن موجة الحرية لا بد من ان تزيل من طريقها ، في النهاية ، كل من يحاول ايقافها واقامة السدود أمام تيارها .

لقد علمتنا الحرب ، كما علمت الدنيا بأسرها ، أن الحريات الديمقراطية هي الاسس التي يقوم عليها النضال الوطني الشريف المجدي ، وأن الشعوب هي اليد التي تحرك هذا النضال وتعمل فيه ، والروح التي تمده بالشجاعة والعزيمة والاقدام . فكل اتجاه نحو تجاهل هذه الحقيقة الكبرى : نحو تجاهل القوى الشعبية ، وإهمال حقوقها ، وإنكار قيمتها في النضال الوطني ، وكل ميل الى إلغاء الحريات الديمقراطية أو منحها لعناصر فاشستية تتسلج بها في مجاربة الديمقراطية نفسها .. هو اتجاه رجعي مقضي عليه بالاخفاق ، فضلاً عن أنه اتجاه خطر يسيء الى المصلحة الوطنية العامة ، يصدّع كيان الوطن ويهدد استقلاله ، ويعرضه الى العدوان الاجنبي ويضعف مقاومته اياه ، لانه يفسح مجالاً واسعاً لان تعبت بأمنه ودفاعه ووحدة صفوفه ، عناصر فاشستية النزعة لا ترى حرجاً في خيانة وطنها لتتفخذ أغراضها الشخصية ومآربها الاجرامية .

ذلك هو الدرس الذي تعلمته الشعوب من هذه الحرب ، في غمرة النكبات والالام ، وضحت في سبيله الملايين العديدة من ابنائها ، وثقفت بروحه الثورية ، قوافل الابطال الذين

جندتهم لمعركة الحرية ...

وان موجة هذه الروح الجديدة لتتدفق في الدنيا وتصعد يوماً بعد آخر فتعاضم قوتها ، وتفرض ارادتها ، ولم يبق بعيداً ذلك اليوم الذي تبني فيه عالمها الجديد ، عالم الوطنية الصحيحة والديموقراطية الصحيحة ، عالم الحرية والاخاء والمساواة بين الناس ، افراداً وشعوباً .

ان الروح الوطنية قد قوّت أواصر الاخاء بين جميع الشعوب التي وجدّت نفسها مهددة بالقضاء ، أمام المحرقة العالمية التي عَصَفَتْ بالشعوب جميعاً ، ووحدتها في النكبة الشاملة وفي الانتصار عليها . وهذا الاخاء العالمي الجديد ، قوًى بدوره شعور كل شعب بحق الشعوب الاخرى في الاستقلال والسيادة الوطنية ، وايمانه بأن الشعب الحر لا يستعبد شعباً آخر !

واذا كانت هزائم هذه الحرب ومخازيها مرتبطة كل الارتباط بخيانة الطبقات الحاكمة ، فإن انتصاراتها وأجنادها لوثيقة الصلة بوطنية الشعوب وشرفها وتضحياتها ، فيجب ان تحمل هذه الانتصارات والاجناد للشعوب ، الحرية الديموقراطية التي تنشدها ، والحرية الوطنية التي تريدها لنفسها وجميع شعوب العالم .

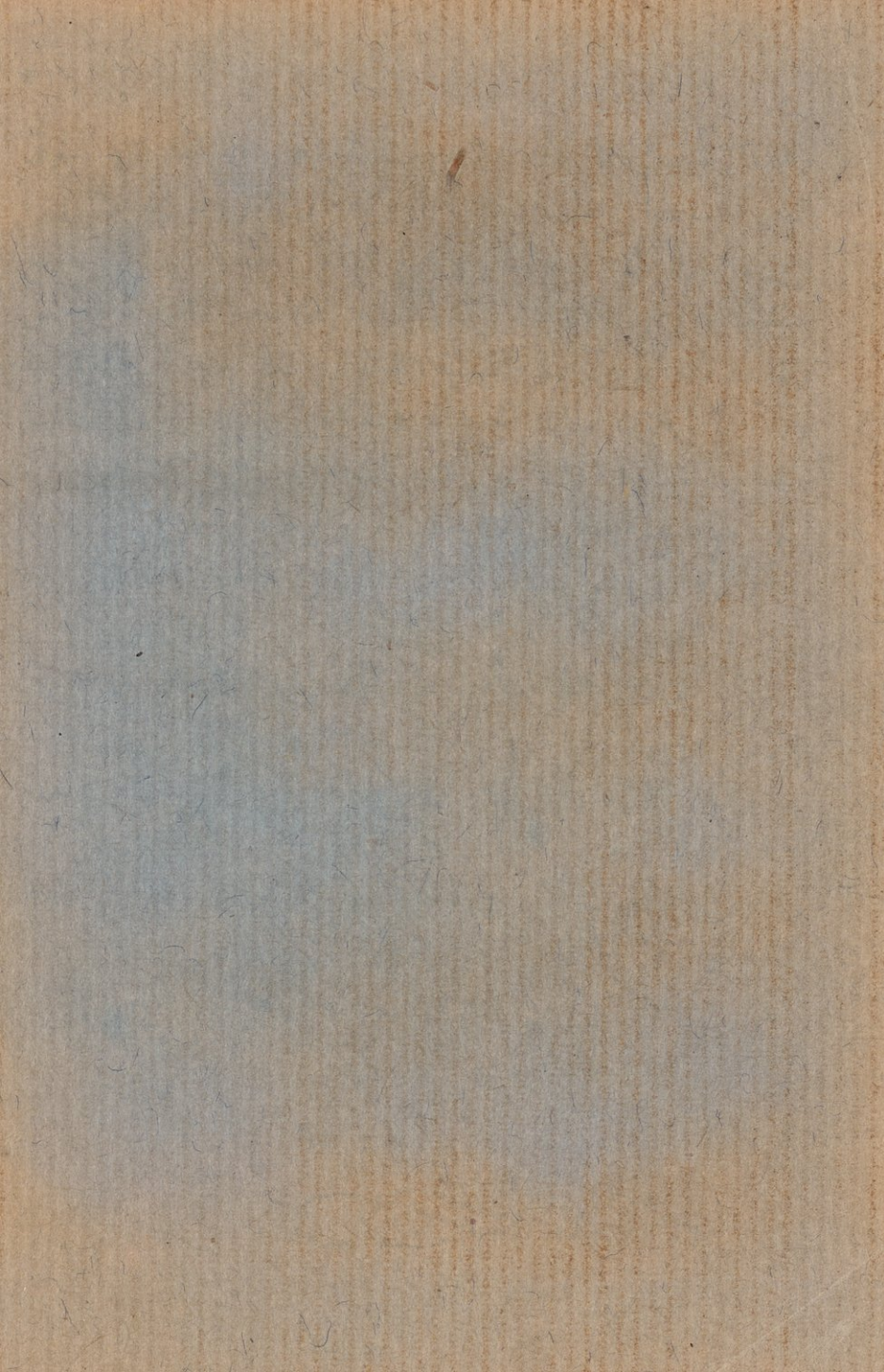
لقد ادركت الشعوب ، ان تقاليدها القومية وخصائصها المحلية ، مهما تنوعت واختلفت ، فان مصالحها الوطنية والاقتصادية لا يمكن ان تختلف ، ولا ينبغي لها ان تختلف . وان مصالح الشركات الاحتكارية الاستعمارية والحكومات التي تمثلها هي وحدها التي تختلف وتتصادم ، وهي وحدها التي تخلق الاحقاد

والضعاف حيث لا حقد ولا ضغينة ، وهي وحدها التي تسوق
الناس بسوطها وتقذف بملايين الابرياء الى الحروب والمجازر ،
وهي وحدها التي تبيع شعوبها بيع السلع وتضحي بها على مذبح
منفعتها ، وهي وحدها التي أوجدت الفاشستية والنازية بالأمس
وتستعد منذ اليوم لأيجاد فاشستية ونازية من نمط آخر ... فالشعوب
تريد ان يكون عالمها الجديد ، هذا العالم الذي ترويه بدمائها
وتبنيه بأيديها ، خالياً من الشركات الاحتكارية الاستعمارية ،
لكي تستطيع الحياة في ظل السلام والرخاء والحرية .
وانه لمن الواجب ، ومن الممكن ، ان تتحقق هذه
الارادة الثورية ..

لأنها ارادة مئات الملايين من المثقفين والكادحين في مشرق
الارض ومغربها ..
ولأنها الارادة التي تمثل روح الحياة وتطور التاريخ وتقدم
الانسانية ..
ولأن الشعوب أصبحت قادرة على تحقيقها ، بوعيتها واتحادها
وتضحياتها .

٢ آذار سنة ١٩٤٥





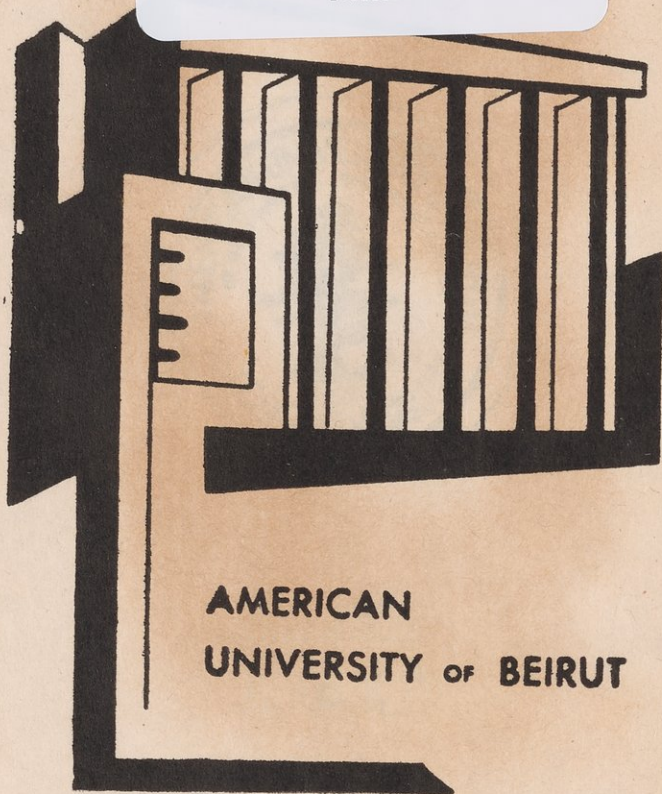
فلعجى . قارى

حرب الشعوب

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01038364



AMERICAN
UNIVERSITY of BEIRUT

892.74
Q614hA